تاريخ الخرطوم

الدكتور محمد ابراهيم ابو سليم

دار الارشاد

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م

مقدمة

صدر الطرف الاكبر من هذا الكتاب في مجلة الخرطوم التي تصدرها وزارة الارشاد القومي بالسودان ، وأذكر أن زارني عند أول صدور المجلة محررها الصديق قيلى أحمد عمر وأبدى رغبته الشديدة في أن يكون بالمجلة شيء عن الخرطوم . وكنت أعلم أن باحثا أمريكيا قد نشر كتابا عن امتداد من امتدادات الخرطوم وهو بري اللاماب ، وكان العزم أول الامر ان نبحث عن مقال أعده أحد اساتذة الجامعة عن هذا الكتاب . غير أن المقال كان باللغة الانجليزية مع ان المجلة تصدر باللغة العربية ، فضلا عن ان أصل البحث لم يكن متوفرا . وفي اثناء ذلك طلب الى الاستاذ قيلى أن أعد بنفسي مقالا وزين الى الامر وهونه ، وكان ان كتبت المقال الاول والذي ظهر في العدد الثاني من المجلة . وكان من المقدر عندي أن أقف عنده . غير أن الاستاذ قيلى استزادني وألح في الامر . وكنت في داخل نفسي أريد أن أرى لنفسي شيئا منشورا . وهكذا مضت المقالات تباعا شهرا بعد شهر حتى بلغت ما بلغت .

وفي نفس الوقت نشر استاذنا حسن نجيلة كلمة في العدد الاسبوعي من جريدة الرأي العام مرحبا بمقالي وحث على أن اتابع الكتابة وأن أجمع ما أنشر في كتاب . وظهر ان لموضوع المقالات اصدقاء ، اذكر منهم صديقنا المرحوم سليمان كشة الذي أمدني بعدد من المصادر وصديقنا المبارك ابراهيم الذي كان يناقشني في بعض النقاط وينبهني الى نقاط جديدة ، وقد وضح بعد سنوات أن للمبارك كتابا في تاريخ السودان وهو أمر لم يذكره لي مع أنه أمدني ببعض مصادره . ولعله خشى ان اتوقف عن الكتابة ان ادركت وجود كتاب له .

وليس عندي ما اكافيء به هؤلاء الاصدقاء الا أن اسجل لهم عرفاني بجميلهم وما أحمله لهم من ود خالص .

وقد تسنى لي وأنا بالقاهرة أن أقف على مصادر لم تتوفر لي بالخرطوم ، مثل كتاب المبارك ابراهيم الذي عثرت عليه بدار الكتب المصرية وكان أهم ما وقفت عليه مجموعة الخرط وعدد من الوثائق كانت ضمن المكاتبات المتبادلة بين ولاة مصر وحكام عام السودان ، وهي محفوظة بدار الوثائق القومية العربية بالقلعة بالقاهرة . وينبغي ان اعترف بأني اعتمدت على نسخ ترجمها موظفون بالدار من أصلها التركي الى اللغة العربية . وقد وجدت اشارات الى بعض الوثائق عن الخرطوم في الملخصات ولكني لم أجد الوثائق المقابلة . وكان أكثر ذلك وقعا على نفسي وثيقة اعتبرها هامة في تحديد تاريخ اختيار الخرطوم عاصمة ، لان الملخص يقول (محمد علي يوافق على اختيار الخرطوم) بينما لا توجد الوثيقة المقابلة لهذا الملخص .

وقد تسنى لي أن اعيد النظر في بعض ما كتبت على ضوء الحقائق الجديدة التي وقفت عليها في دار الوثائق ودار الكتب المصرية . ولذلك فان قراء مجلة الخرطوم سيجدون اختلافا بين هذا الكتاب وبين ما نشرت في تلك المجلة .

وانني لاود أن أشكر كل من عاونني في اعداد هذا الكتاب وأخص بالشكر صديقنا قيلى أحمد عمر واستاذنا حسن نجيلة والشاطر بصيلى عبد الجليل والمبارك ابراهيم والمرحوم سليمان كشه والزميلة خديجة زروق وزميلي وداعة حسين ومحمد صالح حسن ودار الوثائق المركزية بالسودان وأمين مكتبة جامعة الخرطوم ومدير دار الكتب المصرية ومدير دار الوثائق القومية العربية .

محمد ابراهيم أبو سليم
القاهرة ١١/ يوليو ١٩٧٠

هذا الكتاب

- على ملتقى النيلين الأبيض والأزرق تقوم مدينة الخرطوم عاصمة البلد العربي السودان الحديث.

- وفي هذا الكتاب

يعرفنا المؤلف المحقق الدكتور محمد ابراهيم أبو سليم بالتاريخ السياسي والاجتماعي لهذا البلد وبتطوره العمراني معتمداً في ذلك على أوثق المصادر التي أمكن العثور عليها وأقدم الخرائط التي حفظتها لنا الأيام .

- وفي هذا الكتاب

يفصل المؤلف القول عن أجزائه الثلاثة : الخرطوم ، والخرطوم بحري ، وأم درمان .

وقد وصف كلاً منها وصفاً دقيقاً وصوره تصويراً واقعياً .

مما لا غنى عنه لكل متطلع لمعرفة الخرطوم تاريخياً وجغرافياً واجتماعياً .

الناشر

الثمن : ٥٠٠ ق. ل.
٦٠٠ مليم سوداني

من القديم الى العهد التركي

الخرطوم عاصمة السودان الحديث ، وريث مجد سوبا عاصمة مملكة علوه المسيحية وقرى عاصمة مشيخة العبدلاب ، عندها يلتقي النيل الابيض والنيل الازرق ومنها يبدأ النيل الكبير مجراه المبارك الى الشمال • وفد اليها مع غروب شمس سوبا جماعة من المحس فمسروا توتي ، ومن توتي عبر ولي من أوليائهم النهر ونزل الخرطوم ليبني فيه منزلا وخلوة يرتادها الصبيان ، ومع نار العلم التي اوقدها هذا الولي بدأ عمران الخرطوم • وظل المكان لعقب الولي من الولد والجيران ومن اجتمع اليهم حتى غربت شمس دولة الفونج ولما جاء الترك بنوا عاصمتهم في الخرطوم عوضا عن سنار عاصمة الفونج الاولى • وكان انشاء الخرطوم من أعظم انجازات الترك الباقية • ثم قامت دولة المهدية لتهدم كل ما شيّده الترك وهدمت فيما هدمت مدينة الخرطوم وبنت فيما بنت مدينة أم درمان واتخذتها عاصمة • وجاء الحكم المصري الانجليزي ليعيد للخرطوم مجدها الغابر ويتخذها عاصمة للبلاد •

الموقع :

تقع مدينة الخرطوم على الضفة اليسرى للنيل الأزرق ممتدة من نقطة التقائه بالنيل الأبيض الى الشرق حتى الجريف ومتسعة الى الجنوب حتى الضفة اليمنى للنيل الابيض • وهي في شكل مثلث رأسه عند التقاء النيلين وقاعدته الى الشرق مستقرة على النيلين الابيض والازرق • وموضعها عند خط عرض ٣٦ ١٥° شمالا وخط طول ٣٢ ٣٢ شرقا ، وعلى ارتفاع ١٣٥٢ قدما فوق سطح البحر •

ومدينة الخرطوم تكون وحدة ادارية واحدة يتبع كلها بلدية الخرطوم • أما ما يقع وراءها فيتبع ريفي الخرطوم بحري • وقد اضيف

اليها حديثا امتداد الصحافة والشجرة والعزوزاب والجريف وغيرها . وهي آخذة في الاتساع مبتلعة كل عمران يقوم بالقرب منها .

وعلى الضفة اليسرى للنيل الابيض والنيل الكبير تقع مدينة ام درمان ممتدة شمالا وجنوبا وهي العاصمة التي اقامها الانصار عوضا عن الخرطوم . وقد اعتبرت العاصمة الوطنية في العهد الثنائي ، وهي مدينة أفريقية صميمة .

وفي الطرف الثاني للنيل الأزرق مدينة الخرطوم بحري والتي نشأت أساسا حول محطة سكة الحديد في العهد الثنائي وابتلعت بعض المواضع القديمة كحلة حمد وحلة خوجلي وقصر راسخ وربما تمتد في المستقبل حتى تبلغ الحلفاية والكدرو . وتعد مدينة الخرطوم بحري المركز الصناعي الأول للقطر .

والمدن الثلاثة الخرطوم وام‌درمان والخرطوم بحري متصلة بعدد من الكباري وشبكة قوية من المواصلات ، ولكل منها مجلس بلدي خاص وهي مجتمعة تعرف بالعاصمة المثلثة ويمكن تسميتها بالخرطوم الكبرى .

وتقع الخرطوم وجاراتها في موضع يتوسط أقاليم تختلف في اقتصادياتها ، وقد جاء مولدها على أساس ارتباط هذه الاقاليم تجاريا واداريا كما سيأتي بعد .

الاسم :

اختلف الناس حول أصل اسم الخرطوم وساقوا عدة تفسيرات منها ما يبدو معقولا حتى يظنه المرء عين الصواب ومنها ما يبدو سخيفا حتى يود المرء لو تجنب ذكره . ومن الصعب أن يصل المرء الى نتيجة محددة أزاء هذه التفسيرات . ومصدر الصعوبة هو قدم الاسم بحيث يسبق تاريخ انشاء المدينة . ولو انه كان مما أطلق عند انشاء المدينة لاتضح لنا مصدر الاسم ومناسبته على نحو ما هو معروف الآن عن القاهرة وبورسودان وسرمن‌رأى والفاشر والاسماعيلية ولكن المدينة اخذت اسم الموضع القديم ، وليس يعرف بالتحقيق ان كان هذا الاسم عربيا

أو نوبيا أو مرويا أو من لغة غير هذه وتلك . وربما كان الرأي بان بعض اسماء المواضع لا تفسير لها الزم بان يؤخذ هنا ومع ذلك لا بد لنا من أن نستعرض بعض الآراء والتفسيرات اتماما للفائدة .

ذكر فرانت واسبيك المكتشفان لمنابع النيل ان الاسم مأخوذ من القرنفل ، وهو نبات تكثر زراعته في مصر وكان يستعمل زيته للاضاءة.

وقال بعض الظرفاء انه في الاصل خور التوم ثم حرف الى الخرطوم، وذهب آخرون الى ان اللفظ يعني في لغة الشلك ، وبعضهم قال لغة الدينكا ، المكان الذي تجتمع عنده العيون والانهر . وقالوا ان الشلك أو الدينكا ، قد أطلقوا هذا الاسم على المكان لان النيل الابيض والنيل الازرق يلتقيان فيه ويكونان النيل الكبير ويجد هذا الرأي حماسا عظيما عند بعض أبناء الجنوب لما يظنون أن اجدادهم كانوا يستوطنون هذه الديار حتى انحسروا جنوبا تحت ضغط القبائل العربية وهذا وهم وخيال ..

فقد كانت عاصمة الفونج في سنار وكانت سلطنة الفونج خالصة للفونج والعرب ولا يعرف في تاريخهم ان الزنوج كانوا يستوطنون الخرطوم أو أي بقعة شمال النيل . وقبل سلطنة الفونج كانت مملكة النوبة العليا ، وكانت عاصمتها سوبا على بعد أميال قليلة من الخرطوم . اذا كانت الخرطوم تقع في قلب مملكة النوبة المسيحية العليا ولا يعقل أن تكون امتدادا للاقاليم التي يسكنها الزنوج الوثنيون ، واذا صح ان الشلك كانوا في تاريخهم يستدون الى الشمال فلا بد أن يكون ذلك قبل قيام هذه الدولة . ومن المشكوك فيه انهم كانوا يستدون شمالا حتى الخرطوم . واذا تركنا هذا جانبا فاننا نجد ان الناس قد أطلقوا على المكان الذي يلتقي فيه النيلان الابيض والازرق لفظ المقرن الذي يدل على هذه الصفة وهو أحرى بان يحمل معنى اللفظ الزنجي الذي يعني التقاء العيون والانهر .

وكنت في مقال نشرته في مجلة الخرطوم قد رجعت باللفظ الى أصل نوبي ، وكان رأيي هذا يقوم على قرب الموضع الى عاصمة المملكة

النوبية العليا مما يعطي احتمالا لوجود اسم عرف بـه في ذلك الزمـان وهو احتمالا الخرطوم ووجود قرية بهذا الاسم في النوبة السفلى . فقد ذكر الرحالة المشهور بركهارت في رحلاته قرية بهذا الاسم في النوبة المصرية على مقربة من كلابشه مما يعني وجود الاسم بين اسماء البلدان النوبية . ومن المعروف ان الاسماء النوبية للمواضع تتكرر .

وقد تواتر القول بان العرب اطلقوا هذا الاسم علـى المكان لان طرفه يمتد في شكل شريط يشبه خرطوم الفيل حتى يلتقي النيلان الابيض والازرق . ومما يؤيد هذا القول اطلاق نفس اللفظ على موضع شبيه. فقد وجدت في وثيقة من وثائق الفونج ذكرا لموضع يقال له خرتـوم البشاقرة ، وهو يعني ان لفظ الخرطوم او الخرتوم يطلق على لسان الارض الذي يمتد داخل الماء كما هو الحال بآخر الطـرف الغـربي للخرطوم . وعلى ذلك فان للموضع اسمان ، احدهما يأخذ اصله عـن هذه الصفة اي امتداد الارض بين النهرين في شكل لسان وهو الخرطوم بينما يأخذ الثاني عن صفة التقاء النهرين وهو المقرن ، وهذا الثـاني أقرب الى اللسان العربي .

ويبدو ان اصل اللفظ بالتاء أي الخرتوم ثم قلب التاء الى طاء ـ الخرطوم ، وهو نوع من التهذيب على اللسان العربي ، والظن عنـدي أن ذلك التغيير قد تم بعد الفتح المصري ، ونحن نلاحظ مثل هـذا التهذيب في حالات اخرى مثل كردفان . فقد كان الاسم باللام «كردفال» وهو في الاصل اسم جبل بالقرب من الابيض ثم انقلب اللام الى نون « كردفان » بعد الفتح المصري . وقد ورد الاسم باللام في كل الوثائق القديمة السابقة للحكم المصري . والعامة في كردفان ما زالوا ينطقونه على وضعه القديم . ومثله عطبرة فانها في الاصل اتبره بالالف والتاء بدل العين والطاء . وقد ورد هذا الاسم بهذا الشكل ، وهو اصـلا اسم النهر الذي يلحق بالنيل عند هذا الموضع ، في وثائق الفونـج . ومثله الابيض ،فانه في الاصل اللبيّض ، وهو تصغير لكلمة الابيض في لغـة العامة .

ثم تساءل بعد هذا كله ما اصل هذا الاسم ؟ هل هو عربي أم شلكي ام دينكاوي أم نوبي ام مروي • اغلب ظني انه نوبي ولكنه ظن لا يصل الى اليقين • ومن المؤكد في نظري ان اللفظ ليس بعربي •

واذا صح أن أصل الكلمة بالتاء فان الربط بين الاسم وبين خرطوم الفيل أمر بعيد عن الواقع •

العواصم القديمة في اقليم الخرطوم :

لعل أقدم مدينة في اقليم الخرطوم هي تلك التي اكتشف اثرها في سنة ١٩٢٩ في المنطقة الواقعة غرب بحري وجنوب محطة المياه • وقد قدر انها ترجع الى القرن السابع بعد الميلاد • كذلك اكتشفت آثار حياة قديمة في منطقة الشجرة عند حفر ميناء الري المصري • ويفيدنا ارسلان بك الذي زار الخرطوم في سنة ١٨٣١ انه وجد كنيسة متهدمة في توتي • كذلك وجدت آثار عمران قديم في عدد من المواضع بام درمان • وكل هذا يدل على أن منطقة الخرطوم كانت عامرة منذ القدم وان عمرانها كان مؤكدا في العصر المسيحي •

وعلى بعد عشرين كيلو متراً جنوب مدينة الخرطوم كانت تقع مدينة سوبا القديمة عاصمة مملكة النوبة المسيحية العليا أو مملكة علوة ، وقد اشتهرت سوبا من القرن السادس عشر الميلادي وكانت عامرة بالمباني الجميلة والكنائس المسيحية والمعابد التي بنيت على طراز معابد نبتا والنقعة • وكانت كنيسة سوبا تتبع كنيسة الاسكندرية لأن النوبة كانوا على مذهب اليعاقبة كأقباط مصر • ويبدو أن النوبيين بنوا عاصمتهم في هذا المكان لوضعه الجغرافي الممتاز وهم أول من دفعوا بالعاصمة جنوب النقعة ويقال انهم بنوا مدينة اخرى قصادها بالجانب الاخر من النيل الازرق • وقد ظلت سوبا عاصمة عامرة حتى خربها الفونج ونقلوا عاصمتهم الى الجنوب في سنار وذهب تدمير سوبا وخرابها مثلا يجري على لسان السودانيين الى اليوم •

وقد ذكر بعض المؤرخين انه كان بسوبا عدة مئات من الكنائس

فقل عنه الكثيرون دون ترو . والمقصود بالقول في نظرنا هو كنائس المملكة كلها وليست كنائس سوبا على التخصيص .

وقد اهتم علماء الآثار في العصر الحديث بآثار سوبا وقصدها أكثر من عالم . وكان أولهم المسيو جيلود العالم الاثري الفرنسي الذي قام ببعض الحفريات في سنة ١٨٢١ وعثر على بعض القطع الاثرية . ثم جاء دومشن ، الرحالة الالماني والذي اكتشف بعض اجزاء كنيسة سوبا، وقد حمل غردون هذه الاجزاء الى الخرطوم ويقال انها باقية الى الآن في الكنيسة الانجيلية بالخرطوم . وفي سنة ١٩٠٣ وفد اليها البروفسير بدج واكتشف بقايا بوابة المدينة وبعض أطراف الكنائس .

ولما قامت سلطنة الفونج بنى الفونج عاصمتهم في سنار وصارت سنار العاصمة الاولى للمملكة . وقد جعل حلفاؤهم واتباعهم العبدلاب عاصمتهم في قرى الواقعة على بعد ٤٠ ميلا شمال الخرطوم . وهكذا ظل اقليم الخرطوم على مقربة من العاصمة الثانية . وقد بلغت قرى اوج مجدها وقوتها في عهد الشيخ عجيب المنجلك الذي تميز عصره بالفتوحات وقد قتل الشيخ عجيب في واقعة كركوج في سنة ١٦٠٤ وحملت جثته الى قرى ودفن فيها .

وفي سنة ١٧٩٠ ترك الشيخ عجيب الثالث شيخ قرى عاصمة اجداده وانتقل جنوبا ليتخذ حلفاية الملوك عاصمة له . وقد ظلت الحلفاية عاصمة للعبدلاب حتى مجيء الترك ومنذ عهد هذا الشيخ ازداد استقلال العبدلاب عن الفونج وصارت تبعيتهم للفونج تبعية اسمية . وفي نفس الوقت كان نجم قبيلة الشايقية في الصعود . وقد صار الشايقية ينافسون العبدلاب . ويناوئونهم حتى جاء الترك فقاومهم الشايقية أولا ثم صاروا حلفاءهم وعاونوهم فيما تلى من الفتوحات معاونة صادقة وظلت علاقتهم بهم حميمة ابدا .

وقد سلم الشيخ ناصر الامين شيخ العبدلاب دون مقاومة ثم ما لبث ان مات بعد قليل . وقد اقام الترك في الحلفاية حامية قوامها ٤٠٠ من الشايقية تحت قيادة سنجك ولما قتل الملك نمر اسماعيل باشا

في العام التالي وعمت الثورة الاقاليم الشمالية قام الشيخ الامين ابن الشيخ ناصر الامين على رأس قوة من أهله وهجم على الحامية وقضى عليها قضاء مبرما . ولما استعاد الاتراك انفاسهم وقمعوا الثورات في الشمال بقيادة الدفتردار أصابوا العبدلاب وضربوهم دون رحمة فهرب الشيخ الامين الى القلابات ومصادر الاتراك أراضي العبدلاب في الحلفاية وقرى واقطعوها لحلفائهم الشايقية . وقد بدأ نفوذ الشايقية يزداد في الحلفاية منذ ذلك الوقت وهم يكونون بها الآن قوة وعصبية.

قدوم المحس واوليائهم :

وفي بداية القرن السادس عشر الميلادي وفد الى اقليم الخرطوم جماعات من المحس واستوطنوا في الخوجلاب والحلفاية وجزيرة توتى. وكانت توتى اهم مكان تجمعوا فيه . والمحس ينتسبون الى القبائل التي تسكن اقليم المحس جنوبي مركز حلفا وهم يؤكدون دائما انهم من سلالة قبيلة الخزرج العربية ، وهناك من الدلائل ما يوحي بانهم على صواب ويفضل المكانة العظيمة التي خلقها لهم علماؤهم وسط عربان الاقليم والخلاوي التي أنشأوها طاب لهم المقام وتملكوا الاراضي وصار لهم نفوذ عظيم . وقد توافق مجيئهم مع قيام السلطنة السنارية اولى الحكومات الاسلامية في السودان . وبانتقال عاصمة الفونج الى سنار وعاصمة العبدلاب الى قرى خلا الجو للمحس وفقهائهم الذين سكنوا حول النيل وظلوا يتكاثرون ويتوسعون ، فانتقل بعضهم الى الخرطوم وبعضهم الى الخرطوم بحرى وبعضهم الى ام درمان . أما العربان فقد ظلوا في باديتهم وحضرهم يوقرون أولياء المحس ويقدمون لهم الهدايا وينشدون عندهم البركة . وقد صار فقهاء المحس رسل حضارة وذاع صيتهم في السودان .

وقد حرص سلاطين الفونج وشيوخ العبدلاب على ارضاء الفقهاء فاقطعوا لهم الأراضي الواسعة وملكوهم وهيأوا لهم سبل الاقامة والفراغ لخلاويهم وعلومهم .

وكان ممن اقطع لهم الارض الشيخ خوجلي عبدالرحمن وحمد ولد

ام مريوم وهما في مدينة الخرطوم بحرى الحالية والشيخ يعقوب بن مجلى في الجريف غرب وابو سعد والحلفاية .

وقد اعطى الفونج قطعة أرض في العيلفون للشيخ ادريس ولد الارباب كما اقطعوا أرضا للشيخ حمد ولد زروق في الصبابي . ثم وفد الدواليب واقطع لهم الفونج والعبدلاب أراضي واسعة في الكدرو. وهكذا قدر لمنطقة الخرطوم أن تستقبل في هذا الوقت هذا العنصر النشيط من أهل الشمال وان تكون منارة للعلم ومهبطا للاولياء والصالحين .

اخبار الخرطوم :

لا يذكر المؤرخون شيئا عن الخرطوم في عهد مملكة النوبة المسيحية العليا . وفي العصور التالية ، اي طوال العهد الفونجي ،لايكاد يصلنا عنها شيء . فالرحالة الفرنسي بونسيه (Boncet) الذي زار السودان في سنة ١٦٩٨ ذهب من قرى الى سنار مباشرة دون انيتوقف في الخرطوم أو يذكرها . ولما جاء بروس في ١٧٧٢ اتجه من سنار الى شندى عبر الحلفاية دون ان يذكر الخرطوم . وقد ورد في خريطة أوربية صدرت في ١٧٣٩ ذكر توتى في موضعها الحالي ولكن لم تذكر الخريطة الخرطوم ، وفي خريطة اخرى صدرت في ١٨٢٠ جاء ذكر الحلفاية وام درمان بينما سقط ذكر الخرطوم وتوتى .

وفي سنة ١٨٢٠ رافق اوربيان جيش اسماعيل باشا وعبرا معه النهر في منطقة الخرطوم وهما كايو وانجلش . وقد سجل الاثنان مشاهداتهما في كتابين . اما انجلش فلم يذكر الخرطوم ابدا . واما كايو فقد ذكر الموضع باسمه ووصف عبور جيش اسماعيل من امدرمان الى الخرطوم ويبدو من وصفه انه اسم موضع ليس الا . وعلى ذلك فان الخرطوم لا يشكل اهمية بالنسبة للرحالة الاوربيين حتى الفتح المصري . ولعل اول اوربي جاء بعد الفتح ودون مشاهداته عن الخرطوم هو أدوارد بارون فون كالو . Eduard Baron von Callot

والذي اشتهر باسم ارسلان بك . لقد زار ارسلان الخرطوم في ١٩٣١ في طريقه الى الحبشة موفدا من قبل محمد علي باشا وتوقف عندها قليلا ، وهو يسميها رأس الخرطوم كما يشير الى توتى بقوله توتى الخرطوم . وقد ذكر ان رأس الخرطوم ليس به شيء الا بعض الاكواخ الفقيرة . أما توتى فقد اكتشف بها بقايا كنيسة قديمة . هذا في الوقت الذي يصف فيه الحلفاية وذكر انها عاصمة الاقليم وان بها نحو أربعة آلاف نفس .

ومع ان الخرطوم حتى ذلك الوقت لم يكن شيئا اكثر من نقطة عسكرية بينما كانت عاصمة الاقليم الحقيقية في الحلفاية فان ارسلان بك قد ادرك أهمية هذا الموقع وارتباطه بطرق القوافل التي تتجه منها الى الشرق والغرب والشمال والجنوب : ومن ثم اقترح انشاء مدينة تجارية بها ووضع الخرط اللازمة . لقد ذكر ارسلان هذا في رحلته التي لم تترجم بعد الى الانجليزية ولا العربية ولكن الوثائق الرسمية المحفوظة بدار الوثائق المصرية لا تذكر شيئا عن هذه المقترحات .

واذا ما رجعنا الى المصادر السودانية فاننا نجد ان وثائق الاراضي الخاصة بهذا الاقليم لا تذكر الخرطوم بينما هي تذكر توتى وأم درمان والكدرو والفتيحاب . وذكر كاتب الشونة الموضع مرة واحدة في فترة الفونج وذلك عندما وصف هزيمة جيش الفونج والعبدلاب امام جيش الفور وكيف طاردهم الفور حتى الخرطوم . ثم يأتي ذكر الخرطوم عند الكلام عن عبور جيش اسماعيل النهر من ام درمان الى الخرطوم ثم عند الكلام عن مجيء عثمان بك وبنائه النقطة العسكرية بها ثم مجيء محو بك خلفاً لعثمان بك . وبعد ذلك يرد الذكر اضطرادا أما كتاب الطبقات فلم يرد فيه ذكر الخرطوم بالرغم من ان مؤلفه من الحلفاية ويذكر كثيرا من أولياء هذه المنطقة .

والذي يستفاد من هذا كله هو أن الخرطوم لم تكن لها أهمية تذكر حتى مقدم الترك اللهم الا وجود خلوة الشيخ ارباب العقائد وبعض اكواخ الصيادين .

قرية الخرطوم :

وقد ظلت الخرطوم نفسها منطقة غير مأهولة تغطيها الغابات

وتأتيها مياه الفيضان فتغرق اجزاء كبيرة منها . وكان يأتيها المسافرون ليعبروا عندها النيل ويرتادها صيادو السمك في مواسم الصيد يقضون بها حاجاتهم ثم يعودون ادراجهم بما اصطادوا وفي حوالي سنة ١٦٩١ ترك الفقيه أرباب العقائد جزيرة توتى التي اشتهر فيها وعبر النهر ليتشى، في هذا المكان أول قرية مأهولة وكان من عادة الفقيه الذي يشتهر أمره وينشد الاستقلال أن يبحث له عن مكان جديد يبدأ فيه حياته الدينية ويجد فرص الاستقلال والشهرة المتاحة وقد فعل مثل هذا الشيخ خوجلي الذي ترك جزيرة توتى وأنشأ حلة خوجلي والشيخ حمد ولد ام مريوم الذي سكن ام درمان ثم ارتحل الى الخرطوم بحرى الحالية وأنشأ بها حلة حمد الباقية باسمه الى اليوم .

وقد ولد أرباب العقائد في جزيرة توتى ونشأ بها وذاع صيته في البلاد المجاورة ووفد اليه الناس يحملون الهدايا ويتبركون ببركاته وقد ترجم له ود ضيف الله في طبقاته وذكر ان الطلبة قد توافدوا عليه من كل فج وذكر كاتب الشونة ان الرحال قد شدت اليه وان تلاميذه قد بلغوا الف طالب ونيف . وقد يكون في ذلك بعض المبالغة وقد بلغت شهرته سنار فواصله السلطان ودعاه لزيارة عاصمته فوفد اليه ارباب العقائد بعد أن ترك ابنه علي خليفة له .

وقد وافاه الاجل في سنار فمات وبها دفن ولو انه دفن في قرية الخرطوم لعجل ذلك بنمو الخرطوم لما كان له من شهرة وصيت لم يحافظ عليهما خلفه . وكان من تلاميذ الشيخ أرباب العقائد الشيخ خوجلي عبدالرحمن والشيخ حمد ام مريوم والشيخ حتيك وكان لكل منهم طرف في نمو الخرطوم والشيخ فرح ولد تكتوك المدفون بضواحي سنار اما الشيخ خوجلي فقد قصد المنطقة المعروفة الان بالخرطوم بحرى وبنى فيها مسجدا ومنزلا . ولما توفي الشيخ في سنة ١٧٤٣ بنى اتباعه قبة فوق قبره وقد ظلت القبة حتى هدمت في سنة ١٩٣٦ واعيد بناؤها وقد نشأت حلة خوجلي الحالية حول مسكن الشيخ خوجلي وعرفت باسمه وكان هذا الجانب من مدينة الخرطوم بحرى يعرف بالقبة حتى الفتح الاخير . وقد أقطعه الفونج والعبدلاب اراضي واسعة في الخوجلاب

وجهات الخرطوم وما زال خليفته يحتفظ بسجلات هذه الاقطاعيات الى اليوم وقد تفضل فأباح لدار الوثائق المركزية تصويرها وتقديمها لمن يود دراستها فله منا جزيل الشكر .

أما حمد ولد ام مريوم فقد قصد في أول الامر اقليم ام درمان وبدا بها حياته الدينية وقد ظل بها الى ان وقعت خصومة شديدة بينه وبين الشيخ عبد المحمود النوفلابي . ويقال ان عبد المحمود قد احرق منزل حمد وخلوته وكاد حمد نفسه فيما يقولون يذهب ضحيةالحريق لولا أن الشيخ خوجلي أصر عليه بالخروج من المنزل ومغادرة المكان وقد استوطن الشيخ حمد بعدها في المكان الذي به قبته الآن ونشأت حلة حمد المنسوبة اليه حولها .

عاصمة الترك :

وفي سنة ١٨٢٠ ارسل محمد علي باشا والي مصر ابنه اسماعيل باشا على رأس قوة كبيرة لفتح الاقاليم المتضوية تحت مملكة الفونج بينما أرسل محمد بك خسرو الاستامبولي المشهور بالدفتردار لفتح مملكة الفور . وقد دخلت قوات اسماعيل البلاد دون مقاومة تذكر حتى بلغت بلاد الشايقية الذين استبسلوا في الدفاع وقاوموا الجيش الغازي مقاومة مشرفة . غير ان الشايقية ما لبثوا ان تحالفوا مع الترك وصاروا عونا لهم ضد اخوانهم في الجنوب وبفضل تآزر الشايقية معهم والتفوق في العدد والسلاح غلب الترك العبدلاب ثم الفونج ودخلت جيوشهم مدينة سنار التي طالما وصفها أهلها بانها المحروسة المحمية .

وقد بدا السودان بذلك عصرا جديدا يعرف بالعصر التركي.وقد تميزت الايام الاولى لعصر الترك بالقلاقل والحروبات وظلت جيوشهم في حركة مستمرة لاسكات الاضطرابات وفتح الاقاليم التي لم تفتح بعد ، وقد ترك الاتراك حامية قوامها ٤٠٠ شايقي في الحلفاية كما سلف القول وتركوا حامية اكبر في مدينة سنار ، وقد بقيت الاولى حتى قضى عليها الشيخ الامين بن الشيخ ناصر . أما سنار فقد ظلت معسكرا للقوات ومقرا للادارة الجديدة حتى عدل عنها واتخذت مدني عوضا

عنها لسوء جو سنار وتفشى الامراض في الجيش المرابط بها .

وبعد قليل تمكن الملك نمر ملك الجعليين من قتل اسماعيل باشا الذي وجه له اهانة شخصية عدها الملك نمر عارا عليه وعلى اثر ذلك هبت ثورات قبلية عارمة للاطاحة بالحكم الاجنبي واهتزت الادارة الجديدة التي لم تكن قد استقرت بعد . ولما بلغ خبر هذا الامر كردفان وفد الدفتردار مسرعا وانتقم انتقاما مريعا من الجعليين وكافة القبائل الثائرة . وقد اصاب شره أهل توتى وأثقل عليهم ثم لحق القدر المشئوم بالعليفون . وعلى العموم فقد قتل الدفتردار خلقا كثيرا وخرب الديار واثار الرعب في القلوب .

وأول خبر يصادفنا عن منطقة الخرطوم في العهد التركي هو نزول اسماعيل باشا في ام درمان عند مقدمه للفتح . وقد ذكر كاتب الشونة هذا الحادث ووصف اثر مقدمه على الناس فقال : فهرب منه بعض الناس وقابله البعض فاعطاهم الامان لغيرهم ولانفسهم وكساهم وتكامل بالخرطوم فاخذ منهم قدر العليق وفي هذا القول ما يعني ان الخرطوم كانت مأهولة بالسكان وان لم تكن مدينة . ونحسب ان الباشا قد عبر النهر في هذا المكان .

ولما خلف عثمان بك الدفتر دار وصار مديرا نزل بالخرطوم وقابله الشيوخ هناك وقد بنى في الخرطوم معسكرا لجيشه وترك فيه حامية وقد كان ذلك بداية مدينة الخرطوم الجديدة . ولما مات عثمان بك خلفه محو بك مدير بربر وكان رجلا قديرا وقد نزل محو بك في حلة حمد ــ الخرطوم بحرى الآن ــ وعسكر بها مدة من الزمن ثم عاد الى بربر ولما جاء للمرة الثانية نزل بالخرطوم وعسكر بها . وقد روى كاتب الشونة ان جماعة من جيش محو قد استغلت غيابه ونهبت حلة خوجلي وخربوا قبتها فعاد محو مسرعا ليحمي الناس من شرهم . وعلى العموم فقد خطت الخرطوم في عهد محو بك خطوات واسعة نحو العمران . وقد اطلق اسم محو بك على منطقة الشجرة الواقعة جنوب الخرطوم وصارت المنطقة تعرف بشجرة محو وان كان الاهالي يقولون شجرة الماحي احيانا . وللشجرة قصة لا بأس من ان نرويها فقد كانت في الاصل تسمى شجرة النقارة وقد حسب قرانت في

يومياته ان وجود شجرة كبيرة في جزيرة مواجهة لها وكون طبول الخرطوم تسمع بها قد دعا الى اطلاق هذا الاسم عليها ونحسب ان هـــذا هـــراء . والأدعى من ذلك ان يقال ان الشجرة كانت مكانا للتجمعات القبليـــة فتدق فيها الطبول وتقام فيها المهرجانات القبلية . ويحتفظ عـــرب الشجرة الـــى اليوم بتقاراتهم ويدقونها في مواسمهم الخاصة والاعياد ، وفي العهد التركي اطلق الناس على المكان اسم محو وقالوا ان هذه الشجرة الكبيرة نبتت في المكان الذي ضرب فيه محو خيمته ، وظلت المنطقة تعرف بشجرة محو حتى سقوط دولة المهدية . وبعد الفتح الاخير فكر أحـــد مفتشي الحكومة في شيء يثير به السواح الذين يفدون لزيارة المناطق الاثرية فزعم بأن الشجرة شجرة ضخمة زرعها غردون ورعاها حتى كبرت ومن ثم اطلق الناس عليها شجرة غردون . اما اليوم فقد تخلى الناس عن هذا وذاك وصاروا يطلقون عليها الشجرة فقط .

ثم جاء خورشيد باشا وحل محل محو بك وقد نزل خورشيـــد اولا بام درمان وقابله محو بك هناك واقاما بها عدة ايام . وقد تلقته على حـــد تعبير كاتب الشونة المشايخ هناك ثم دخل المدينة . وقد اتسعت الخرطوم في عهده اتساعا عظيما ويقال انه اضطر الى توسيع الجامع الذي بناه بعـــد سبع سنوات من انشائه وكان بناؤه في سنة ١٢٤٥ هجرية وتوسيعه في سنة ١٢٥٣ وقد اشار كاتب الشونة الى توسيعه فقال : وفي يوم الجمعة المباركة ٧ج ١٢٥٣ هـ اقيمت صلاة الجمعة بالجامع الشريف بعد عمارته وانشائه بعد ان امر الباشا بتوسيعه في بنائه الاول الذي هو في سنة ١٢٤٥ وقد شيـــد خورشيد ثكنات للجهادية كما شجع الاهالي علـــى تشييد المنازل وعاونهم بتقديم معدات البناء ويقال ان خورشيد كان يصنع الطوب الاحمر في سوبا ثم ينقله الى الخرطوم .

وقد اضاف عبد اللطيف باشا منشئات جديـــدة فبنى قصر الحكمدار وهو القصر الذي قتل فيه غردون وقد شيد هذا القصر من جديد بعد الفتح وصار في العهد الوطني المقر الرسمي لرأس الدولة . كذلك بنى عبد اللطيف مبنى مديرية الخرطوم القديمة والمطبعـــة ومحكمـــة العســـوم والاجزاخانة

وقشلاقات الطوبجية ، وكانت كلها بالطوب الاحمر وفي عهده انشئت مدرسة رفاعة .

وفي سنة ١٨٤٨ وصل الفوج الاول من المبشرين بقيادة الاب ريلو وقد قدر رئيس الفوج سكان الخرطوم في ذلك الوقت بحوالي ١٥٫٠٠٠ نسمة ، وكان الشريف حسن وهو تاجر سوداني مسلم اول من رحب بهم عند وصولهم المدينة ثم نشروا خيامهم على شاطىء النيل . وكانت معيشتهم شاقة لافتقارهم الى المال وتدهور حالتهم الصحية الى درجة خطيرة حتى جاز لأحدهم ان يصف معسكرهم بقوله: ان بعثتنا تشبه مستشفى وموادنا قد نضبت ــ وقد وقف معهم في هذه المحنة الشريف حسن الذي قدم لهم مساعدات قيمة وعاونهم معاونة صادقة واشترى لهم من جيبه الخاص قطعة ارض على شاطىء النيل الازرق ، فاقاموا فيها ارسالية الخرطوم ، وكان ذلك في الموضع الذي به بلدية الخرطوم الآن . وقد تجلت في شخص هذا المحسن العظيم سماحة المسلمين واريحيتهم مع من يخالفونهم في الرأي والعقيدة وتسامحهم الديني .

ولنقف هنا قليلا لنتساءل عن تاريخ بداية الخرطوم فالمؤرخون مختلفون في هذه النقطة اختلافا شديدا .

ذكر المبارك ابراهيم ان ميلاد المدينة ــ كان في سنة ١٨٢٤م.وقال ان المصريين قد ابقوا على سنار عاصمة لقربها من جبال شنقول حيث كانوا يأملون ان يجدوا بها كميات وافرة من الذهب ولما ذهبت الامال ادراج الرياح وابت الجبال ان تعطي الذهب فقدت سنار مؤهلها ولما كان جوها سيئا وتفشت الملاريا والدوسنتاريا في الجنود حتى بلغ عدد الضحايا في ١٦ اكتوبر سنة ١٨٢١م ، ١٥٠٠ دفينا كما جاء في التقارير الرسمية، والمرضى اكثر ، وبقي من الجيش ٥٠٠ فانهم قد انصرفوا الى الخرطوم واتخذوا مقرا لرئاسة الحكومة . ومن المؤسف اننا لا نقف على التفاصيل التي يذكرها بعد ذلك لان النسخة الوحيدة التي اعتمدنا عليها من الكتاب وهي المحفوظة بدار الكتب المصرية تسقط ورقة في هذا الموضع .

وبعضهم قال ان المصريين اقاموا بها معسكرا دائما في سنة ١٨٢٢ ثم اخذ يتوسع حتى اختيرت عاصمة في ١٨٣٠ .

وقال آخر ان تأسيسها كان بين ١٨٢٠ و ١٨٢٢ وان هذا التأسيس مهد لفتح كردفان ..

وقال بدج بان تأسيسها كان بين ١٨٢٠ و ١٨٢٣ ثم يذكر ان عثمان بك الذي عين حاكما على السودان في سنة ١٨٢٥ جعل من الخرطوم المنشأة حديثا مركزا لقيادته .

وقال آخر ان الدفتردار هو الذي اختار الموضع وهذا يعني ان التاريخ يرجع الى سنة ١٨٢٣ .

وذكر تشارلس ديدير الذي زار الخرطوم في ١٨٥٤ ان تأسيسها كان في ١٨٢٣ ، وانها اضحت فيما بعد مركز الكشف الجغرافي في مناطق النيل الاعلى .

وقال عبد الله حسين انها اصبحت معسكرا للجيش في سنة ١٨٢٣ ثم اضحت مقرا لحكمدار السودان خورشيد باشا وعاصمة للسودان في سنة ١٨٣٠ .

وقال محمد صبري ان معسكرا دائما قد اقيم فيها في ١٨٢٣ وان خورشيد اتخذها عاصمة في سنة ١٨٣٠ .

وعلينا قبل ان نصدر حكما ان نفرق بين المراحل المختلفة التي مرت بها الخرطوم . ففي المرحلة الاولى كانت احراشاً وغابات وفي المرحلة الثانية اتخذها ارباب العقائد مركزا لخلوته وبدأ بها العمار . وفي المرحلة الثالثة بنى بها عثمان بك جركس نقطة عسكرية . وفي المرحلة الرابعة صارت النقطة العسكرية عاصمة لكل السودان .

وكما قلنا سابقا فان الخرطوم كانت عبارة عن غابات واحراش في أراضيها العليا ، اما الاراضي السفلى فكانت جروفاً يزرعها أهالي توتى .

وقد جاء اسم برى من هذه الصفة اي البر بالنسبة للجزيرة . وكان

صيادو السمك يرتادون المنطقة .

ثم جاء الشيخ أرباب العقائد المحسي من توتى وانتقل اليها بحيرانه وأسس بها خلوة . وقد تحول الموضع بفضله من مزرعة الى قرية .

ولما وصل اسماعيل باشا الى الموضع في طريقه الى سنار لم يمكث بها الا ثلاثة ايام ريثما يعبر جيشه النهر ، وكان ذلك بين ٢٨ مايو وأول يونيو . وفي عهد اسماعيل ظلت حال الخرطوم على ما هي عليها وظلت سنار عاصمة . وكان مما دفع المصريين الى البقاء في سنار واتخاذها عاصمة قربها الى مناجم الذهب في جبال فازوغلي وبني شنقول والتي وضع المصريون عليها آمالا عظيمة ، واهتمام المصريين بالقضاء على نظام الفونج نهائيا ووضع نظام جديد . وكان هذا يعني البقاء في سنار العاصمة والتي تسيطر على مناطق الجزيرة كلها .

وفي نفس الوقت فإن الحلفاية ظلت عاصمة للاقاليم التي كانت منضوية لمشيخة العبدلاب مباشرة . وقد رأينا كيف ترك فيها المصريون حامية من الشايقية وكيف كان أمرها عندما اندلعت الثورة اثر مقتل اسماعيل وكيف ضرب المصريون العبدلاب على يد الدفتردار .

وعلينا على هذا الضوء ان نتابع أخبار المدن الاربعة المهمة ـ الخرطوم ، الحلفاية ، مدني ، سنار ، كما ترد اخبارها في الوثائق المتبادلة بين الولاة في مصر وحكام السودان .

ففي ١٤ ذى القعدة سنة ١٢٣٦ هـ ترد اشارة الى سنار وتصفها بأنها كرسي بلاد السودان وهي تعني انها عاصمة الادارة المصرية .

وفي محرم سنة ١٢٣٧هـ نجد محمد علي باشا وابنيه ابراهيم واسماعيل مشغولين بادارة اقليم الحلفاية . فقد اقترح اسماعيل باشا على أبيه تعيين محو بك حاكما على هذا الاقليم . وقد عرض محمد علي الامر على ابراهيم باشا واستشاره فيه . وكان رأي ابراهيم الا يعين قائد مبرز مثل محو بك على الحلفاية نظرا الى انها اقليم خرب وقريب من سنار ومن المكن ادارته منها بسبعين او ثمانين فارسا . وقد افاد محمد علي محو بك بما انتهى اليه .

وعينه بناء على اقتراح ابراهيم باشا حاكما على أقاليم شندى وبربر والرباطاب والتي ادمجت في ادارة واحدة ... « وبناء على ذلك فقد اجعلت هذه الاقاليم الثلاثة الى عهدة حميتكم واصدرنا أمرنا هذا فيتعين بانه نظرا لكون الاقاليم المذكورة هي طريق سنار فالواجب ان تذهبوا اليهـــا مباشرة وان تقيموا في المحل المناسب لان يكون مركزا للحكومة فيها وان تعينوا لكـــل محل من يقتضيه هذا المحل من رجالكم » .

وعلى ذلك فإن الامر المهم عند الوالي هو ان هذه الاقاليم تعتبـــر الطريق الى سنار وسنرى اهمية ذلك عندما تتخذ الخرطوم نقطـــة لبدايـــة الطريق الى الغرب ، وان اختيار عاصمة الاقليم الجديد متروك لمحو ، وقد اختار بربر وهي مدينة قديمة مشهورة وتتصل عندها طرق القوافل التجارية وتتوسط هذا الاقليم الجديد .

اما الحلفاية فقد عهد أمرها الى محمد اغا القبوجي باشي ، اي كبير الحجاب . ونحن نعلم من المكاتبات المتبادلة ان القبوجي باشي قد أحضر شيخ العبدلاب ، وهو يشير اليه بملك الحلفاية ومنحه الأمان وأجلسه في مكانه حاكما .

ولعناية الذين تتاح لهم الفرصة للوقوف على الوثائق الخاصة بهـــذه الاقاليم في هذه الفترة فإننا نذكر ان الوثائق الاصلية بدار الوثائق العربية باللغة التركية وتوجد بها نسخ ووثائق مترجمة الى اللغة العربية ، وهي من وضع مجموعة من المترجمين أتى بهم الملك فؤاد وعينهم في الـــدار لترجمة الوثائق التركية الى اللغة العربية . وقد رأيت انهم يخلطون بين بربر ــ في السودان ــ وبربرا ــ في الصومال وبين الحلفاية وبين وادي حلفا . ولست ادري ان كان الخلط من المترجمين أو كان من الاصل .

وفي ٢١ شوال سنة ١٢٣٧ ترد اشارة الى حاكم الحلفاية .

وفي ٢٩ شوال ١٢٣٧ نقف على خطاب من محمد علي يبـــين فيـــه الوضع بالنسبة لادارة بربر ومحلقاته والحلفاية وسنار ومدني . وهذه هي المرة الاولى التي يذكر فيها مدني ــ اما الخرطوم فلا يرد لها ذكر . ويلاحظ في هذا الخطاب ان مدني يأتي بالاسم الاصلي وهـــو ولـــد مدني . يقول

الخطاب : ان فردة حلفاية قد حولت على القبوجي باشى (كبير الحجاب) محمد اغا وحولت فردة شندي وبربر على محو بك ... وانكم مقيمون بالموضع الذي يقال له ولد مدني وشرعتم في بناء تكنة ذات تسعين غرفة وانكم عهدتم الى احد الكاشفين بادارة أمور سنار وامرتم رئيس المغاربة محمد اغا بالاقامة بها مع اتباعه ». ويرد في الهامش قوله : « لما كان حاكم حلفاية القبوجي باشى المشار اليه وحاكم القصير محمود أفندي ممن ينبغي عودتهم مع طوسون بك نارسلوهم معهم واستخدموا مكانهم اهل التجربة ».

وفي موضع آخر يكرر محمد علي نفس البيانات ثم يضيف : « وقد وافقناكم على عدم اقامتكم بسنار والى اختيار المكث في محل معتدل جوه وعلى تفويضكم ادارة شئون سنار الى الكاشف المشار اليه وتعيين كبير المغاربة المذكور في معيته اما بناء التكنة فلا تقل استحسانا عن هذه الامور ». وهكذا فان اقامة اسماعيل قد اصبحت في مدني وقد صارت مدني عاصمة بينما صارت سنار مجرد نقطة . والخرطوم لا تذكر ابدا . أما الحلفاية فيأتي ذكرها مع الادارات الاخرى مثل سنار وبربر .

ولما جاء الدفتردار اثر مقتل اسماعيل باشا تكل باهل توتي وكل مناطق الخرطوم كما تكل بالجعليين وسكان النيل عموما . اما في الخرطوم ذاتها فقد هدم جامع ارباب العقائد وقتل حفيده ارباب ولد كامل ولد الفكي علي بمدفع . ولم يذكر انه انشأ في الخرطوم شيئا . وعلى العموم فإن عمله كان منصبا على اسكات الثورة وضربها ولم يكن وقته وقت بناء .

وعلينا ان نلاحظ ان العواصم السابقة كانت على النيل الازرق والنيل الكبير في داخل دائرة كبيرة تترسط اقليم الجزيرة وجزيرة الهوى وهما قلب سلطنة الفونج ومشيخة العبدلاب وقلب الادارة المصرية في أول عهدها . وتقع داخل هذه الدائرة سنار والحلفاية وقرى واربجي : وسوبا . وقد اعتبر محمد علي — كما رأينا — اقليم شندي وبربر والرباطاب مجرد معبر الى سنار كما اعتبر اقليم دنقلا ممرا الى الغرب . وعلى ذلك كانت دنقلا

في بعض الاحيان تتبع مصر مباشرة . وفي بعض الاحيان كانت تدمج مع بربر . وطبيعة الاقليمين من حيث انهما معبر الى الداخل واحدة .

ويلاحظ ان الاقليم الذي يقع غرب النيل كان تابعا لاقليم كردفان ولم يكن هذا الاقليم تابعا لسلطنات الشرق الا في فترات قليلة . وكان اهم ما يربط كردفان بالشرق طرق القوافل لا التبعية السياسية . والملاحظة الاخرى هي عدم اهتمام النوبة والفونج بأعالي النيل ، وذلك لان نشاطهم كان يتركز على النيل الازرق ، ولذلك ظل ما يعرف عن أعالي النيل قليلا حتى جاء المصريون وطوروا المواصلات النيلية وعبروا الى الجنوب الى ما وراء السدود وادخلوا ذلك العالم المظلم داخل دائرتهم التجارية ثم السياسية . ويكاد يكون من المؤكد عندي ان العامل الحاسم في اتخاذ الخرطوم نقطة هو ربط كردفان بإدارة سنار .

فقد كانت ادارة كردفان معزولة عن سنار ، اما لتبعيته لدارفور او استقلاله بنفسه ، ولم يصر تابعا لسنار الا لفترة قصيرة . ولما جاء الفتح المصري ارسل محمد علي باشا جيشا قائما بذاته لكردفان بقيادة الدفتردار بينما ارسل جيشا آخر بقيادة ابنه اسماعيل لفتح سنار . وقد ظلت العمليات الحربية ثم الادارة مستقلة في الاقليمين عن بعضهما البعض .

ولما جاءت الثورة بعد مقتل اسماعيل توجه الدفتردار من كردفان لتأديب الثوار . ولم يكن في ذلك شيء من الربط بين المنطقتين . ويبدو ان محمد علي قد فكر في التخلص من كردفان وتركيز جهوده في سنار حيث كان يرجو الذهب والرجال لجيشه . فقد جاء في خطاب من محمد علي الى الدفتردار بعد ان سرد تفاصيل حملة الدفتردار شمال الخرطوم حتى شندي وبربر :

« فيا ولدي العزيز قد انتهت هذه المهمة الى هذه النتيجة اذا كانت الارادة الإلهية قضت بذلك . وما علينا في هذا الأمر الا ان نصبر صبرا الهيا ونجتهد اجتهادا انسانيا لذلك اسند منصب سر عسكرية السودان على عهدة حميتكم فاروني حميتكم واحيلوا ادارة جهات كردفان الى ملك مناسب من ملوك الولاية على سبيل المقطوعية واذهبوا أنتم الى سنار واجلبوا اليها

الجنود الذين كانوا تحت امرتكم بكردفان او احضروهم عندكم ثم خذوهم معكم حتى اذا وصلتم الى سنار فافحصوا كيفية ادارة الجزيرة وتدبروا فيها وانشئوا بروجا في الاماكن المناسبة واقيموا فيها عددا من الرجال ... فاذهبوا اليها (يقصد شندي) التي اشتهرت بلطافة الجو واسكنوها حتى يحل موسم الأمطار . حتى اذا انقضى أوان الامطار فعودوا الى سنار واشتغلوا بتسوية الشئون كما تقتضيه الاحوال ..

... واعلم اننا فوضنا مصالح سنار الى عهدة حميتك ريثما نولي عليها سر عسكر في السنة المقبلة ونرسله اليها » .

وظاهر من هذا الكلام اولا ان محمد علي كان ينظر الى كردفان بمعزل عن سنار وملحقاتها، وان سنار وملحقاتها صارت تعرف بالسودان. وظاهر ثانيا ان محمد علي يريد ان يركز الأمر في سنار ، وانه يريد ان يجعل أمر كردفان لملك يديره بالنيابة عنه مقابل التزام يدفعه . وظاهر ثالثا ان مكان العاصمة لم يقطع فيه حتى الآن وذلك لسوء جو سنار ومدني . وكان شندي اليق من جهة الجو وصلاحيته الا ان اهله لم يكن يشجعون مثل هذه الخطوة كما ان وضعه الجغرافي لم يكن يسكن من ادارة اقليم سنار وعلى ذلك فإن الوالي يأمر سر عسكره بالاقامة في شندي ريثما ينتهي موسم الامطار وبالتوجه بعده الى سنار . وهو يرجو ان يدرس كيفية ادارة الجزيرة أي أقليم سنار وأن ينظر في أمر العاصمة المناسبة .

ثم جاء عثمان بك جركس البرنجي حاكما على « السودان وكردفان » معا وبصفة دائمة . وعلى ذلك فإن الأمر يقتضي النظر في نقطة تتحكم على اقليم سنار والحلفاية وبربر وكردفان ، نقطة متوسطة تربط هذه المناطق ويمكن ادارتها منها . والواقع ان هذا هو الذي كان يشغل بال عثمان بالاضافة الى كيفية تقسيم القوات . لقد ارسل عثمان تقريرا الى محمد علي باشا قبل ان يصل الى الخرطوم وصف فيه أحوال القرى وهروب الاهالي الى الجبال كلما حل بموضع والاجراءات التي اتخذها . ثم ذكر انه عند وصوله الى الخرطوم سوف يسير القائمقام سليمان بك الى كردفان . ثم ذكر في خطاب آخر وصوله الى الخرطوم ، وانه عازم على الاقامة بها وانه

ارسل القائمقام سليمان والاورطة الثانية واربعة كشاف الى كردفان وانه سينشىء قلعة بالخرطوم وحصنا في جهتي الشرق والغرب وانه سيجعل بها الاورطة الخامسة بينما يوزع باقي الجنود بين سنار والخرطوم . وفي خطاب ثالث وصف عثمان كيفية توزيع الجنود وذكر انه أرسل لكردفان الاورطة الثانية والثالثة والدليل باشي علي اغا الكردي واربعة من الكشاف وارسل الاورطة الاولى للسرابطة في سنار وارسل الاورطة الرابعة للسرابطة في مدني بينما جعل الاورطة الخامسة في الخرطوم .

وعلى ذلك فإن استراتيجية عثمان هي توزيع الجنود على الاقاليم المختلفة وانشاء نقطة بقلعة في الخرطوم للتحكم منها على الاقاليم ، ولذلك أنشأ النقطة والقلعة وحصن الشرق وحصن الغرب . والمقصود بالشرق الخرطوم بحري الحالية وبالغرب ام درمان .

ولقد وقفت في دار الوثائق العربية على ملخص لوثيقة هامة بالنسبة لتحديد تاريخ الخرطوم . ولكنني لم اقف على أصل الخطاب في المجموعة المترجمة الى اللغة العربية وحال عدم معرفتي بالتركية دون البحث عنها في أصلها التركي . وهذه الوثيقة فيما يقول الملخص مؤرخة في ١٦ ديسمبر ١٨٢٤ وصادرة من محمد علي باشا الى عثمان بك البرنجي ، وقد اعطى فيها محمد علي باشا موافقته على اختيار الخرطوم . ومدلول هذه الوثيقة لا يخرج عن موافقته على توزيع الاورط وبناء القلعة بالخرطوم كما سلف .

هل يعني هذا ان الخرطوم اضحت عاصمة ؟ ليس هناك من الدلائل ما نستطيع ان نقطع به ولكن يبدو ان الخرطوم لم تكن اكثر من نقطة ولكنها اكتسبت اهمية لربط كردفان بإدارة سنار ودمجه .

ولقد مات عثمان في ٢٣ رمضان سنة ١٢٤٠ بالخرطوم ودفن بها . وقبره غير معروف كما ان موضع معسكره غير معروف ايضا . ولكنه احتمل انه كان الى الجنوب في اتجاه منطقة الشجرة . والدليل على ذلك اطلاق اسم محو على المنطقة على زعم انه زرع بها شجرة عرفت باسمه ، وهذا دليل على ان مقره كان هنا .

وجاء بعده محو واستقر في الخرطوم ، ولعله كان يفضل الاقامة بها

لان جوها كان احسن من جو سنار ومدني ولانها قريبة الى الاقاليم التي خدم فيها اي بربر وشندي . اما اقليم كردفان فقد استقلت ادارته وصار سليمان بك مديرا لها بعد ان ترقى الى مرتبة ميرالاي . ماذا فعل محمو بالخرطوم ؟ هل اتخذها عاصمة ؟ لا شيء يقطع بذلك ، ولكن يبدو ان اقامته كانت هناك بينما يؤخذ من الروايات ان دواوين الادارة كانت في مدني .

ثم جاء خورشيد ونست الخرطوم في عهده كما بينا . وعلى ذلك فإن نقطة بدء مدينة الخرطوم كانت في عهد عثمان بك جركس البرنجي وعلى يده ، ثم صارت المدينة تكبر حتى بلغت ما بلغت في عهد خورشيد وصارت عاصمة وفق اختياره .

وعلى ذلك كان انشاء نقطة الخرطوم في سنة ١٨٢٤ وهو تاريخ تعيين عثمان بك . وكان تعيين محو على سنار في سنة ١٨٢٥ ورفعه عن الحكم في سنة ١٨٢٦ . ثم جاء بعده خورشيد . ويبدو ان الاخير لم يتخذ النقطة عاصمة عند اول مجيئه وانما جاء ذلك شيئا فشيئا الى ان تم نقل الدواوين اليها بصفة نهائية حوالي سنة ١٨٣٠ م .

(٢) عاصمة الترك المصريين

بينما كانت عاصمة الادارة المصرية تتنقل من مكان الى آخر ويجري البحث عن مكان مناسب كان السودان نفسه يسير نحو تكوينه المندمج ليتخذ شكله السياسي والاقتصادي الحالي .

لقد كانت منطقة دارفور سلطنة منفصلة وقد سبق قيام سلطنة الفور قيام سلطنة الفونج . ولم يكن الفور اول من اسسوا الدولة في هذه المنطقة ، فقد سبقهم الى ذلك الداجو ثم التنجر الذين وضعوا قانون دالي المشهور والذي يعد المحاولة الوحيدة في السودان لتسجيل القوانين العرفية وتنقيحها . وفيما يقول المؤرخون فإن سلطنة الفور قد قامت على انقاض سلطنة التنجر في سنة ١٦٤٠ م . وقد استمرت حتى وضع الزبير باشا نهايتها في سنة ١٨٧٥م وضم اراضيها الى البلاد التابعة للإدارة المصرية . اما كردفان فكانت تقليديا تابعة لدارفور ، وكان يحكمها الكنجارة وهم بنو عمومة سلاطين الفور ، بشيء من التبعية ، تزيد او تنقص حسب الظروف لسلطان دارفور . ونحن نعلم ان جيوش سنار قد غزت كردفان واحتلتها بعد وقائع كادت الدائرة فيها ان تدور على الفونج ويبدو ان احتلال الفونج لم يستمر طويلا ، فقد قاد الوزير محمد ابو لكيلك وقائد جيش الفونج قواته وذهب بها الى سنار ليقصي السلطان بادي بن نول ويستولي على السلطة وقد انشغلت دولة الفونج بعد ذلك بالحروب الداخلية والفتن ولم تهدأ فيها الاحوال ليجدد الفونج نشاطهم في كردفان . وقد بقيت كردفان تحت حكم الكنجارة التابعين لسيادة دارفور حتى غزت قوات الدفتردار الاقليم واخضعته لحكم الترك . وكان الاقليم كما اسلفنا مستقلا بادارته تحت الدفتردار ثم صار في ادارة موحدة مع سنار واقاليم النيل بعد مقتل اسماعيل . ولما جاء عثمان بك صار حاكما على كردفان وسنار وملحقاتها .

وفي عهد محو صارت ادارة كردفان مستقلة ، ثم عاد فادمج في ادارة سنار في سنة ١٨٣٢ م في عهد خورشيد .

وكانت مديرية دنقلا وحدة ادارية منفصلة حتى سنة ١٨٣٣ ، وكان مديرها الى هذا العهد يتصل بالقاهرة مباشرة . وكانت المنطقة الشمالية منها اي منطقة المحس وسكوت وأرض الحجر وحلفا تابعة لمحافظة قنا حتى سنة ١٢٣٧هـ . ففي هذه السنة اضيف السكوت والمحس الى دنقلا بينما ظلت حلفا وملحقاتها الى حدود السكوت تابعة لقنا . وقد جاء ضم حلفا الى السودان عند قيام المهدية حيث اعتبرت الحصن الاول ضد غارات المهدية . وفي نفس الوقت فصل الطرف الجنوبي من محافظة قنا (١٢٩٢ هـ) وسمى مديرية الحدود ثم مديرية اسوان .

وكانت حلفا قرية صغيرة عند الحد الشمالي للشلال الثاني ، وكانت طرق القوافل والسفن تلتقي عندها . ثم اتخذت اهمية خاصة بعد فتح السودان على يد اسماعيل ، اذ اعتبرت المحطة الرئيسية لنقل البضائع وترحيل الموظفين والجنود والحيوانات المصدرة بين أسوان ودنقلا . ولما جاءت المهدية أقيم فيها معسكر دائم للجيش المصري ولم يتمكن الانصار من اقتحام هذا المعسكر أو ان يحاصروها أو يحتلوا البلاد الواقعة خلفها ، وانما تمكنوا فقط من شن بعض الغارات . وقد تمكن لنجومي من اجتيازها من الطرف الثاني من النهر الا انه وجد نهايته في توشكي . وعلى اي فان حلفا قد اضحت نتيجة لهذه الظروف جزءا من السودان . وصار خط الحدود يسير في شكل لسان حتى فرص بعد ان كان في بلدة صرص .

وقد تمتعت مديرية بربر — وهي تشمل منطقة الرباطاب وبربر وشندي بنفس الاستقلال والتبعية المباشرة لمصر حتى سنة ١٨٢٦ . اما الاقاليم الشرقية والجنوبية فقد استولى عليها المصريون وضموها الى هذه الادارة الجديدة مع مرور الزمن . وبذلك اتخذ السودان شكله السياسي والاقتصادي .

وكانت مدينة الخرطوم القديمة تبعد نحو ميل جنوب النيل وكانت الدواوين ومساكن الموظفين وثكنات الجيش في المكان الذي به محطة السكة

الحديد الآن وكان الحي الاهلي الى الشمال منها وهو ما يعرف بحي سلامة الباشا .

وفي عهد خورشيد دخلت المدينة طورا جديدا وذلك بأن اتجهت في اتساعها نحو الشمال ، وقد شمل ذلك انشاء حي المسجد . وفي عهد عبد اللطيف اتسعت المدينة نحو الشمال الشرقي وقام حي الحكمدارية .

وفي عهد جعفر صادق حلت كارثة كبرى بالمدينة (سنة ١٨٦٦) من جراء الامطار والسيول وانهار عدد كبير من المنازل مما دعى والي مصر الى التفكير في بناء العاصمة في جزيرة توتي بدلا من الخرطوم . وقد جاء في ملخص خطاب الى الحكمدار بالسودان قوله « بوصول افادته بتاريخ ٢٩ ربيع أول سنة ١٢٨٣ المتضمن نزول الامطار الغزيرة في ليلة الثلاثاء الموافق ٢٥ ربيع اول سنة ١٢٨٣ وأحدث ضررا بناحية الخرطوم ولكن بسبب انها عمت جميع انحاء السودان فالمأمول باذن الله زيادة المحصولات ... وصل مسامعه الكريمة بأن موقع بلدة الخرطوم منحطة ورطبة من جهة ومن جهة اخرى فإن مساكنها مبنية بالطوب الاخضر بعضها والبعض الاخر من القش ولذلك يرى نقلها من موقعها الحالي الى الجزيرة التي امامها تدريجيا كلما سنحت لذلك الفرصة » . هذا هو ملخص الخطاب كما دونه أحد موظفي دار الوثائق المصرية ، اما الخطاب الاصلي فلم نعثر عليه . وقد فضل جعفر باشا المضي في عمران الخرطوم، ثم زاد اسماعيل ايوب في المباني الحكومية، وكان مما شيده معمل الورق ومعمل البارود .

ولقد بلغ اقصى امتداد الخرطوم في اواخر العهد التركي المنطقة الواقعة ما بين حديقة الحيوان الحالية وما بين مباني وزارة الصحة تقريبا . فكان ما يلي ذلك من الغرب عبارة عن حدائق وبساتين ، وما يليها الى المقرن منطقة يغمرها الفيضان . ومن هذه المنطقة كان يبدأ الشارع الذي يسير على محاذاة النيل ، وكان ينتهي في الطرف الآخر من المدينة . وكان يبدأ منه شارع آخر ينتهي بالسوق . وقد شيد الاتراك مصالح الحكومة بالقرب من النيل ، والى الجنوب من ذلك قام حي المسجد والذي كان ارقى احياء المدينة وكانت الاحياء الشعبية تقع في الاطراف .

وقد واجه الاتراك المصاعب والأهوال من فيضان النيل الابيض

الذي كان يغطي مناطق شاسعة ويترك وراءه البرك والمستنقعات ، وقد ساعد ذلك في انتشار الأوبئة الفتاكة ، وكانت الامطار والسيول تهدم ما يشيده الانسان . وكانت الامراض الفتاكة كحمى ام سبعة والهواء الاصفر (الكوليرا) تنتشر من وقت لآخر وتفتك بالناس فتكا .

ومن طريف ما يذكر ان خورشيد باشا قد شيد قصرا في شندي ليقضي فيه فترة الصيف المخيفة ، وكان موسى حمدي باشا يقضي الصيف في اسوان . وقد اعتمد خورشيد في اول الامر على الطوب الذي جلبه من خرائب سوبا ، ويقال انه عهد بذلك الى عبد السلام زعيم المغاربة والذي كان مرابطا بقومه في موضع حلة كوكو بالخرطوم بحري . ثم انشأ الاتراك كنائن الطوب الاحمر في بري والجريف ، اما الحجر الذي استعمل في بناء بعض القصور فقد جلب من غرب ام درمان .

وكان انعدام الحرفيين من بنائين ونجارين وغيرهم من اعقد المشاكل ولذلك احضروهم من مصر ، واعدوا بلوكات من الجيش لتقوم بهذا العمل . وكان بالخرطوم موظف عمله مناظرة مشاكل البناء والاشراف على المباني وهو ناظر العمارات الميرية . وكانت الظروف الطبيعية كالسيول والفيضانات والامطار تعقد الامور بينما لا توجد مواد البناء بشكل كاف .

يقول الحكمدار في خطاب الى المعية السنية بتاريخ ٤ محرم سنة ١٢٨٧ ، مستعرضا مشاكل العمران وذاكرا له الخطة التي بدا تنفيذها منذ ثلاث سنوات :

« ... السودان لاستغراق ايرادها في المصاريف لم كان جاري بها عمارات ميرية وطوابي ومساكن عسكرية حتى من الجملة لم يوجد بها اشوان وقشلاق وجبه خانات ودواوين واستباليات الا شيء قليل مبني بالطين والطوب الاخضر . وفي كل سنة يهد من الامطار ويصير تجديده سنوي بمصاريف زايدة ومشقة بدون فايدة كون ان جهات السودان لغاية حضوره بها لم كانوا يعرفون الطوب الاحمر ولا الجير ولا كان يوجد بها بنائين وحجارة ونجارين وقعلة وحدادين . ولما اتضح له ان احداث المباني

بالحجر والطوب الاحمر والجير هو اوفر وارجح للميري وانه لشرف الحكومة في ابقى اثار العمارية في زمن الحضرة الخديوية فلذلك رتب بلوكات عمارة من العساكر السودانيين المتقدمين في السن بالخرطوم والتاكة وكردفان وسواكن ومصوع واعرض كيفية ذلك شفاهي وتحريري للحضرة الخديوية وصار اسعافي بارسال حجارة ولعجية وبنايين ونجارين وحدادين وبواسطتهم قد صار تعليم جملة اشخاص من العبيد واهالي السودان . وانه لما كان بالمحروسة وطلب منه تقديم ميزانية الصرف (اتضح ان هناك وفر كثير) لانه اذا شرع في بناء لا يصرف الا اجرة البنايين والحجارة والجيارة والنجارين . واما ضرب الطوب وقطع الحجر ونقل الاخشاب فهو بمعرفة عساكر بلوكات العمارة ونقله لمحل العمل هو ببراكب الميري وجمال وحمير الميري واغلب الفعلا هم من المحابيس المذنبين وكلما صرف بهذا الوجه تخصم بالابعادية على كل عمارة حتى صار احداث مباني وعمارات وارصفة ومحطات للتلغراف ومساجد ومكاتب ودواوين وكمارك واستحكامات وشون ومخازن باغلب مراكز المديريات خصوصا سواكن ومصوع ... »

وغني عن البيان ان الخطاب يعالج شأن العمران بصفة عامة ، وان كثيرا مما ذكر لا ينطبق على حالة الخرطوم بالذات ولكن مشاكل العمران العامة ينبغي ان تفهم حتى تتضح صورة عمران الخرطوم بشكلها الطبيعي.

ويبدو أن الحكومة كانت تشجع الموظفين والضباط لبناء مساكنهم فقد جاء تعليق الخديوي على عريضة احد الضباط ما يلي : اذا كان المذكور حفر بير وغرس أشجار مختلفة ونخيل ويلزم جهدا لتقدم العمران فإن من اللازم مساعدته وامثاله بما يتناسب .

وعن مدينة الخرطوم وعمارتها وجملة من شئونها يصدر الخديوي أمرا الى الحكمدار ، يشير فيه الى ان التصورات المعقولة التي ابداها الحكمدار « في ادخال اصلاحات جديدة على الأبنية الاميرية في بندر الخرطوم هي في محلها وانها تستحق الاستحسان والتقدير . بيد انه

روى من المناسب ان يقام ديوان مديرية الخرطوم وديوان الحكمدارية ودار المحكمة في سمت واحد وان يرتب لبنادر الخرطوم والاقاليم السودانية كدنقلة وبربر وكردفان وكسلا وسواكن ومصوع مأمور وضبطية وفواصون على نحو ما هو جار في اقاليم هناء وان ينشا محل خاص لديوان الضبطية قريبا من ديوان الحكمدارية وان يختار محل المستشفى في مكان معروض للهواء واسع الجوانب وان تكون له حديقة كبيرة وان يكون في البندر قشلاق كذلك في مكان بعيد مع الاهتمام بتنظيم الشوارع وتوسيعها على قدر الامكان ورعاية اصول الصحية والهندسية في بناء المحلات المنشأة وتصريف المياه التي تتجمع من السيول المعتادة صونا للمدينة من الغوائل للبحر . ولما كان ترتيب الضبطية ومأموريها على النحو الآنف ذكره سيترتب عليه ان يناظر حفظ الامن العام والمنازعات والمخاصمات بهؤلاء المأمورين فيجب اختيار الموظفين من رجال العمل المتحلين بصفات الاستقامة لتعتمدهم العامة وكذلك يجب اختيار القواصين من عساكر الباشبوزق (غير النظامية) المهذبين لا من غواة الهندام والجراءة والسفه والتهتك . وبما انه سترسل ٤٠٠ كسوة لإلباس هؤلاء فيجب اعطاء كل واحد كسوتين وتعيين بلوكباشي على رأس كل تسعة منهم وعلى رأس كل ٥٠ نفر ملاحظ (قفوش اغاسي) وان يعطي النفر ماهية قدرها ٣٠٠ قرش والبلوكباشي ٢٥٠ قرش والقفوش اغاسي ٣٥٠ قرش على الا يزيد عددهم على ما ينيف الآن . ثم يوزعون على البنادر بحسب اهميتها ما عدا سواكن ومصوع اللتين سيرسل اليهما من هنا . ولما كانت الحكومة تعتني بوضع لائحة لمأموري ضبطية الاقاليم فسترسل لكم صورة عنها عند استكمالها . فعليكم تصريف الشئون الآن وفق درايتكم حتى نرسل اليكم اللائحة . أما ما يعطي للاهالي والاجانب من الطوب والحجر والجير والبلاط والخشب من أجل العمارات فيجب ألا تضاف اليه ارباح ترغيبا للاهالي في العمران . ولما كان من مقتضيات رغبتنا توطيد الامن والسكينة في البلاد وتحسين حالة العباد وترك اثر بارز في اصلاح السودان فإن كل جهد تبذلونه في استكمال ذلك يوجب ارتياحي . فشمروا عن ساعد الجد

وابذلوا في سبيل الاصلاح الذي أشرتم اليه في خطابكم كل جهد.

وصف الخرطوم :

كانت المدينة مقسمة الى احياء ، وكان كل حي يسمى قسما واليك وصفا لأهم احياء المدينة .

حي الحكمدارية :

كان حي الحكمدارية أهم احياء الخرطوم وقد تجمعت فيه دواوين الحكومة ومصالحها وبيوت كبار الموظفين وثكنات الجيش والمرافق التابعة له . وكان هذا الحي يمتد من المكان الذي به الآن مصلحة المراجعة الى المكان الذي به جامعة الخرطوم ، وهو المكان الذي تتركز فيه السلطة الآن . وكان أهم مباني الحي هو قصر الحكمدارية ، وهو المقر الرسمي للحكمدار ، وكان موضعه في المكان الذي به وزارة المالية والاقتصاد والميدان الذي على شماله . وقد شيد هذا القصر في عهد أحمد مختار باشا ، واستجلب لبنائه الحجر الابيض المنحوت من غرب ام درمان . وكان المدخل الرئيسي للقصر وهو الذي يدخل منه العموم بالناحية الجنوبية . أما المدخل الخصوصي الذي يدخل منه الحكمدار فكان بالشرق وكان المدخل الرئيسي يتكون من ثلاثة أبواب وأمام كل باب دكتان طويلتان احداهما بالناحية الشرقية والاخرى بالغربية ، ويجلس على هذه الدكك القواصة الاتراك بسراويلهم المقصبة واردينهم القصيرة وسيوفهم الكبيرة . ويشرق هذا المدخل رواق مستطيل فيه غرف من الجانبين وله باب شرقي يوصل بين القصر والسراي وهو باب الحكمدار. وكان في غرب هذا الرواق مكاتب القلمين التركي والافرنجي ومكتبة القصر .

والى الشرق من قصر الحكمدارية كان السراي وهو القصر الذي أعد لسكنى الحكمدار وعائلته . وقد شيد هذا القصر خورشيد باشا ثم جدد بناءه عبداللطيف . وقد بني القصر بالحجر الابيض المنحوت الذي استجلب من ام درمان . وكانت تحيط به من الشرق والغرب والجنوب

حديقة واسعة . أما البناء نفسه فكان مطلا على شارع النيل . وقد ظل هذا القصر مسكنا للحكمداريين حتى شغل غردون في سنة ١٨٨٤ اي في أثناء الحصار بعض اجزائه بالدواوين . وقد جعل في الدور الارضي مصلحة المالية وجعل طرفا من الدور الاعلى مكاتب له ولمعاونيه بينما اكتفى هو بجناح لسكناه . وقد قتل غردون على يد انصار المهدي في هذا الجناح ، واسدل بذلك الستار على الحكم التركي الذي استمر اكثر من ستين عاما . ان هذا القصر هو قصر الذكريات ، فقد أقام فيه الحكام الاتراك الى أن لقى آخرهم مصيره على يد الانصار . ولما دارت الدائرة على الانصار وعاد الامر للغزاة اتجه كتشنر لتوه الى هذه البقعة ليرفع على انقاض القصر العلمين المصري والبريطاني ويقيم صلاة جنائزية على روح غردون . وبعد فترة وجيزة شيد على نفس الاساس القديم القصر الحالي واقام فيه حكام عام السودان ، وكانوا هذه المرة من البريطانيين ، وقد ظلت الايام تدور والعلمان يرفرفان فوق القصر رمزا للحكم الاجنبي المشترك حتى جاء اليوم المعلوم وانزل العلمان في حشد كبير وحل مكانهما علم السودان المستقل . وقد غير هذا العلم نفسه في احتفال رسمي في مايو ١٩٧٠ ، وقد اضحى القصر اليوم مقر رأس الدولة وصار يعرف بالقصر الجمهوري بعد ان كان سراي الحاكم العام .

والى الشرق من السراي كانت الشونة ، وهي مخزن للغلال وكان موضعها في المكان الذي به وزارة الاشغال الآن . وكان يعمل بهذه الشونة أحمد بن الحاج أبو علي المشهور بكاتب الشونة والذي وضع المخطوط المنسوب اليه في تاريخ سلطنة الفونج واوائل العهد التركي ، وهو مخطوط قيم ، ويعد الاثر السوداني الوحيد في موضوعه . ولهذا المخطوط نسخ خطية كثيرة ونسختان محققتان مطبوعتان ، حقق احداهما البروفسير مكي شبيكة واخراها الاستاذ الشاطر بصيلي عبد الجليل . وقد روى كاتب الشونة الشيء الكثير عن مدينة الخرطوم ، وهو مصدر أساسي في هذا الموضوع . وتجاور الشونة من الشرق الترسانة ، وكانت هذه من أهم مصالح الحكومة ، وهذا أمر طبيعي بالنسبة لاهتمام

الاتراك بالنقل النهري بين مصر والسودان ولاعتمادهم على المواصلات النهرية في توسعهم نحو اواسط افريقيا ، وقد تم لهم بالفعل فتح بلاد شاسعة امتدت حتى يوغندة . وبخلاف ترسانة الخرطوم اقام الاتراك مراكز لبناء السفن من خشب السنط في الكاملين وبربر وود شلعي وسنار ودنقلا . وقد استجلبوا لذلك العمال المهرة من مصر وأدخلوا طرازا جديدا من المراكب لم يكن للاهالي به عهد ، وبفضل اهتمامهم بالنقل النهري ونمو التجارة النهرية اتسعت صناعة المراكب وعادت لاهلها بالربح الوفير ، فوفد الصناع الى أواسط السودان حيث يكثر السنط ويشتد الاقبال على المراكب ، وكان من هؤلاء عبدالله بن فحل والد الامام المهدي .

وكانت الترسانة في أول امرها بغرب المدينة في الموضع الذي به الآن طلمبة مياه المدينة بغرب متحف الخرطوم . وقد أمر الوالي بنقلها الى مكان مرتفع تفاديا لمياه الفيضان فنقل الجزء الخاص بالسفن الى الشرق في الموضع الذي بيناه ، بينما ابقى على الجزء الخاص بصناعة المراكب الشراعية في الموضع القديم ، وهو الذي عرف بالمنجرة . وكان به أيضا ظرف اهلي تصنع فيه مراكب الاهالي . وحتى بعد ان نقل ذلك الجانب من الترسانة ظل معظم عمال الترسانة ، واغلبهم من السود يسكنون بها حتى جاءت المهدية . والى وقت قريب كان هذا الموضع عامرا بسكانه وقد رحلوا بعد الاستقلال الى أماكن اخرى بعد ان اعطوا أراضي البناء والتعويضات اللازمة .

وكان بالترسانة ١٢ سفينة بخارية كبيرة وعدد من السنادل الصغيرة وعدد كبير من السفن الشراعية . وكانت كلها مملوكة للحكومة لتؤدي أعمالها ، كما أنها كانت تؤجر للتجار وكل من أراد . وكان اغلب السفن والمراكب التي استعملها الاجانب في التجارة بأعالي النيل مؤجرة من الحكومة . وقد انشئت في هذه الترسانة البواخر : محمد علي ، ونيانزا ، وشبين ، والتوفيقية ، والحسينية ، والفاشر ، والزبير . وقد احصى قرانت البواخر والسفن التابعة للترسانة فعد ٤٥ سفينة وذهبية تحت

البناء وعشر سفن جاهزة للايجار ، ومائتين تعمل على النيل الابيض . وكان للترسانة ناظر كما كان بها مهندس ميكانيكي تساوي الاصل (١٢٨٨ هـ) وعدد كبير من النجارين والحدادين وغيرهم من العمال .

ولقد لعبت البواخر دورا خطيرا أثناء حصار الخرطوم ، وكان من المقدر الا تقاوم المدينة كل هذه المقاومة لولا هذه البواخر التي كانت ترسل حسبها على الانصار وهي في وسط النهر ولا سبيل الى الوصول اليها . ولما سقطت المدينة استولى الانصار على ما بقي من هذه البواخر واضافوها الى بيت المال . وبدار الوثائق المركزية بعض وثائق هذه الترسانة في عهدها التركي وعهدها المهدوي ، وهي تفيدنا بمعلومات كثيرة عن السفن وتلقي اضواء كثيفة على دور النقل النهري في العهدين التركي والمهدوي .

وعلى ما نحسب كانت المطبعة الاميرية ملحقة بالترسانة او على الاقل لم يكن موضعها بعيدا عنها . وكانت ادارة المطبعة تتكون من المطبعة ومخزن كبير للورق وورشة لتجليد الكتب والدفاتر . وقد طبع الاتراك في هذه المطبعة دفاتر الحسابات وأوراق الدمغة وكل مستلزمات الحكومة من المطبوعات ، ولما اشتد حصار الخرطوم وشح النقد في المدينة طبع غردون بوناته المشهورة والتي بلغت قيمتها ستين الف جنيه ، وكانت البونات عبارة عن سندات حكومية تعهد غردون بدفع قيمتها نقدا من خزينة الخرطوم أو مصر بعد ستة اشهر من تاريخ اصدارها .

ولقد كانت بونات غردون أول نقد ورقي عرفه السودانيون .

وكان مما طبع في هذه المطبعة الرسائل التي ألفها علماء الخرطوم في الهجوم على المهدي وانكار مهديته ، وقد تم طبعها في سنة ١٢٩٩هـ ومنها كتاب هدى المستهدي الى بيان المهدي والمتمهدي للشيخ الأمين بن محمد رئيس ومميز علماء السودان ، ورسالة الغزي وحتيك ومن معهما . وتوجد النسخة الوحيدة من هدى المستهدي في الخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية وعدة نسخ من الرسالة الثانية بدار الوثائق المصرية ولا توجد نسخ لها في غير هذا الموضع .

وكان بشرقي الترسانة بعض ثكنات الجيش ومصنع حربي لصناعة الذخيرة وملابس الجيش والاحذية ثم مستشفى الخرطوم . وقد بدأ انشاء هذا المستشفى في عهد ممتاز باشا وبلغ كماله في عهد اسماعيل ايوب ، وكان يسع ٢٧٠ سريرا . وقد وصف احد السواح الذين زاروا هذا المستشفى بعد افتتاحه بسنوات وصفه بالرداءة والقذارة بينماوصفه الدكتور فلكن الذي زاره بعد هذا السائح بقليل بأنه مستشفى فسيح وممتاز . ومما يذكر ان الاتراك بنوا مستشفى في كل عاصمة من عواصم المديريات ما عدا فاشودة .

والى الجنوب من قصر الحكمدارية كانت مباني المديرية ومصلحة البوسته ومصلحة المالية وميدان فسيح تقام فيه الحفلات الرسمية .وكان يحيط بها كلها سور كبير . وكانت مباني المديرية اقل ارتفاعا من مباني الحكمدارية ، وقد شيدت مبانيها في عهد خورشيد باشا وكان بجنوبها دهليز مستطيل وبوابة جنوبية مزخرفة ، وتوصل بين الدهليز والبوابة قرادة ذات اعمدة شاهقة يجلس عليها اصحاب المطالب والمصالح من الاهالي . وكان على جانبي الدهليز غرف يسكنها البلك المكلف بحراسة هذه المصالح . وكان في الطرف الشمالي الغربي من هذا المربع مصلحة البوسته والمالية ، وقد نقلت الاخيرة الى السراي في عهد غردون كما اسلفنا . والى الجنوب من هذا المربع كانت مباني مصلحة الصحة وكان موضعها في المكان الذي به مصلحة المراجعة الآن .

حي المسجد :

والى الغرب من حي الحكمدارية كان حي المسجد وهو اهم الاحياء السكنية . وقد نشأ هذا الحي حول المسجد الذي بناه خورشيد باشا ثم وسعه كما سبق القول في المقال السابق . ويخيل الينا ان هذا المسجد لم يكن بعيدا عن البقعة التي كانت بها حلة الخرطوم القديمة . وكان أهم معالم هذا الحي المسجد المذكور . وهو المسجد الذي صلى فيه الامام المهدي في اول زيارة له لمدينة الخرطوم بعد سقوطها في يده ، ثم السوق ، وكان مقسما الى قسمين ، السوق العربي والسوق الافرنجي،

وكان كل منهما يتكون من أربعة شوارع ، وقد امتدت يد الاصلاح اليه في عهد اسماعيل أيوب ووسعت شوارعه . وكانت بيوت الاهالي في هذا الحي مبنية الى عهد خورشيد باشا بالطين والشكاب وجلود البقر والقش ، ولم يكن بها منازل بالطوب الأحمر الا العدد القليل . وقد شجع خورشيد الاهالي على التعمير وظل يمدهم بالاخشاب والالواح فحلت المباني الراقية مكان بيوت الشكاب والقطاطي والزرائب . ومع مضي السنين صارت هذه البقعة مسكن علية القوم وسراتهم ، فاقيمت فيها القصور وسكنها كبار التجار والاعيان والاجانب بينما تراجع الفقراء الى اطراف المدينة . وكان من هذه القصور قصر علي الخلوصي وكان مقاما في المكان الذي به قصر السيد علي الميرغني الآن ، وقصر الخواجة جورج شيادي الذي كان مشيدا في المكان الذي بين سراي السيد علي واستراحة الري المصري ، وقد شغل صاحبه الدور الأرضي بحانوت مستطيل مملوء بأصناف المشروبات الاوربية وبار وقهوة على الطراز الافرنجي ، وكان في هذا الحي بعض القنصليات الاجنبية ، وكانت القنصلية المجرية على الشارع المطل على النيل بينما كانت القنصلية الايطالية شرق المسجد وكان من القصور المهمة قصر الجاركوك ، وقد خصص هذا القصر لسكنى الامام المهدي بعد سقوط المدينة . وقد كان المهدي يحل به للراحة عندما يقوم بزيارة المدينة ولم يتخذه مسكنا دائما لأنه ظل معسكرا في الجانب الغربي من النيل الابيض حتى شرع في بناء معسكر الهجرة والذي تطور الى مدينة ام درمان .

وفي الموضع الذي به المجلس البلدي الآن شيد المبشرون الكاثوليك مبنى الارسالية الرومانية الكاثوليكية ، وقد كان ذلك أول بناء حجري عرفته المدينة ، وقد الحقوا به مدرسة لتعليم الصبيان وحديقة واسعة امتدت الارسالية بطالبها . وقد كانت الارسالية تشغل المنطقة التي تشغلها الآن بلدية الخرطوم ومكاتب الري المصري ومنزل مفتش الري المصري ومصلحة النائب العام . وقد جلب المبشرون ماكينة بخارية للري، واستخدموا ايطالياً يدعى دومنيكو ليشرف على المزرعة وقد بقي دومنيكو يقوم بهذه المهمة بحماس حتى توفي بعد سقوط المدينة في يد الانصار

بزمن . والى الشمال الغربي من هذا الحي كانت كنيسة الاقباط ، وقد اقيمت الكنيسة الحالية في موضع الكنيسة القديمة .

وكان بالموضع الذي يسمى الآن المحطة الوسطى ارسالية بروسيا البروتستنتية التي أقامت معبداً ودارا ومدرسة .

الاحياء الشعبية :

وكانت هناك أحياء اخرى أقل أهمية من الاحياء السالفة وهي الاحياء الشعبية التي يسكنها عامة القوم ممن هم دون كبار الموظفين وسراة المدينة، وقد قامت هذه الاحياء في أطراف المدينة وكان جل سكانها من المواطنين. من هذه الاحياء حي سلامة الباشا ، وكان موضعه في الجنوب الغربي من المدينة ومكانه الآن جنوب السوق العربي . وكان سكانه من الدناقلة والنوبة وغيرهم من أهل البلد . ويعتبر هذا الحي أقدم أحياء المدينة ، ثم حي النوبة ونقصد بهم الوافدين من جبال النوبة وهم بخلاف الوافدين من حلفا ، وكان هذا الحي يقع الى الشرق من حي سلامة الباشا وكان سكانه في الغالب من النوبة والعناصر السوداء المتقاعدين عن خدمة الجيش .. وكان هناك حي يسمى « هبوب ضرباني » وهو أفقر أحياء المدينة ، كما يبدو من اسمه وكان يسكنه الفقراء . وفي المنطقة الواقعة غربي شارع الحرية الحالي كان حي الترس ، وقد أخذ اسمه من الجسر الذي اقيم جنوبيه لحماية المدينة من فيضان النيل الابيض وكان سكان هذا الحي من المصريين والسودانيين . وكان هناك حي الكاره وهو حي يسكن فيه العسكر المصريون والسودانيون ، وحي الطوبجية ، وكان يسكنه الطوبجية . وفي أقصى الشرق كان حي بري المحس وهو حي الوطنيين من أهل الجهة ، وقد ظل هذا الحي في مكانه الى أن نقل الى موضعه الحالي بالبراري في سنة ١٩٠٠ واقيمت في مكانه ثكنات الجيش البريطاني .

ادارة المدينة :

وقد أنشأ الاتراك في الخرطوم محكمة شرعية عليا كان من اختصاصها النظر في القضايا الجنائية والمدنية بجانب القضايا الشرعية . وكان أول

من تولى القضاء الشيخ أحمد السلاوي الذي وفد مع الجيش الفاتح ، وقد رأيت تأشيرة له على بعض سندات الاراضي وصف فيها نفسه ومحكمته بقوله : بالمحكمة الشرعية المطهرة المرضية بخرطوم جزيرة سنار المحمية لدى متوليها السيد أحمد افندي السلاوي قاضي بلاد السودان . وكان دون هذه المحكمة محكمة مأمور ضابطية الخرطوم التي كانت تنظر في القضايا الصغيرة . ثم انشئت المجالس المحلية في السودان على غرار المجالس في مصر للنظر في القضايا الجنائية والمدنية الكبرى . وكان من نصيب الخرطوم مجلس محلي . ثم أسس في الخرطوم مجلس للاستئناف ، تستأنف فيه جميع الاحكام الصادرة من المجالس المحلية وكان يجوز استئناف احكام هذا المجلس عند مجلس الاحكام بمصر . أما الادارة المحلية فكانت في يد ناظر قسم الخرطوم ، وهو يوازي المركز في نظام الحكم الثنائي الذي تعدل مؤخرا . وكان قسم الخرطوم يمتد جنوبا على النيل الازرق الى مسافة بعيدة . وكان أول النظار تركياً يدعى بكر بك ثم خلفه سودانيون ، وكان اغلب هؤلاء من قبيلة الشنابلة والمحس . اما المديرية فكانت تتكون من عدة أقسام كما هو العهد بمحافظة الخرطوم سابقا .

التعليم :

كان السودانيون يعتبرون التعليم مهمة انسانية يقوم بها من له القدرة والكفاءة بعون ذوي الاريحية مقابل حسن الجزاء في الآخرة . وقد قامت مدارسهم المنبثة في القرى والتي عرفت بالخلاوي على هذا الاساس . ولم تكن لهذه المدارس برامج ولا رابطة تجمع بينها ، وكانت شهرة الخلوة تقوم على شخص الاستاذ ومبلغ علمه وماعسى أن يكون لاجداده من الشهرة والصيت . ولقد سبق القول ان قرية الخرطوم قد قامت حول احدى هذه الخلاوي . ولما جاء العصر التركي وتحولت القرية الى مدينة عامرة لم يغير ذلك من نظر الوطنيين الى التعليم كثيرا ، فارتاد ابناؤهم الخلاوي التقليدية واستكفوا عن مدارس الحكومة ومدرسة الارسالية لما كانوا يرون فيها من الخطر على ابنائهم .

وقد اهتم المصريون بهذا النوع من التعليم ، وأعطوا الخلاوي

المهمة مساعدات مالية نقدا ونوعا . أي جراية . وكان من الخلاوي التي تحصل على هذه الاعانة خلوة الغبش المشهورة التي تتلمذ فيها المهدي لفترة . وقد رفض المهدي ان يأكل طعام الخلوة لاعتباره اياه من جراية الحكومة . لما انها حرام عليه في اعتقاده . ذلك لان بعض المتدينين كانوا يسيئون الظن بالحكومة ويرون انها تجمع أموال المسلمين بغير وجه شرعي . وقد رأيت خطابا في دار الوثائق القومية العربية يعد شاهدا على نمط الاعانة . وقد جاء فيه أن خلوة الشيخ أبي صالح بن الشيخ أحمد الطيب كان بها ٥٤ طالبا من الفقراء وقد خصص لها ٢٥٠ قرشا شهريا . منها ١٠٠ للخلوة و ١٥٠ للشيخ نفسه بالاضافة الى أربعة ارادب وسدس من الذرة .

وخلوة الشيخ الامين محمد خوجلي كان بها ١٥٣ من الفقراء ، وخلوة الشيخ محمد عبدالله خوجلي بالغبش ٥٧ فقيرا ، وذكر ان الاوائل يحفظون القرآن ، وأن الأواخر يدرسون العلم الشريف . وقد خصص لخلوة الشيخ الامين ٤٠٠ قرش ومن الذرة ستة ارادب . أما لخلوة الغبش فقد خصص ٢٥٠ قرشا وأربعة ارادب ذرة . وكان المصريون يجعلون في كل مسجد من مساجد المدن مدرسة لتعليم الدين يرتادها الكبار والصغار . ففي دنقلا انشأوا في سنة ١٢٦٣ هـ مسجدا ومدرسة والحقوا بها ١٦ دكانا ليصرف ريعها على المؤسسة الدينية .

وكان اول مسجد ادخل فيه نظام التعليم مسجد الخرطوم ، وقد أمر بذلك سعيد باشا عند زيارته للخرطوم ثم أصبح الامر بعد ذلك سنة يحافظ عليها في كل مسجد كبير . يقول خطاب عن هذا المسجد : « اجبتم بأن موكب جناب الخديو لما كان في السودان انشيء بموجب ارادة سنية مسجد لتعليم من له رغبة بتعلم العلم الشريف وخصص له من جانب الحكومة مائة وخمسون قرشا ولكن بالنظر لوجود الفقراء في المسجد المذكور بكثرة ترون انه اذا أضيف على ذلك المرتب القديم مائة قرش أيضا حتى يكون المجموع مايتين وخمسين قرشا مع ترتيب ثلاثين أردب من الذرة في السنة يمكن ادارة أمور ذلك المسجد بسن فيه » . وقد طلب الخطاب الموافاة بعدد الفقراء ومقدار حصة كل منهم

وقد جاء الرد بأن الفقراء يبلغون ٨١ وان المرتب مائة وخمسون قرشا وان ذلك كله مقيد من قديم باسم الشيخ ابراهيم ، وهو شيخ هذه المدرسة .

ويقول الخديو في خطاب عن مدارس المساجد بعد أن يشير الى القرار بتعيين الاساتذة المرتبين لأجل نشر العلوم والمعارف : « بعد انشاء الجوامع في مثل هذه الجهات والنواحي التي دخلت تحت ادارة الحكومة وتبعيتها وبعد انشاء مدرسة واسعة في جانب كل جامع من الجوامع المذكورة لأجل نشر العلوم والمعارف يلزم انتخاب الذين سيكونون اساتذة لهذه المدارس من أصحاب الاهلية والكفاية . وحيث ان رؤساءهم بالطبع سيكونون من زمرة العلماء فالأصوب ان يكون تلقيبهم بعنوان رئيس الاساتذة أو بعنوان آخر بدلا من أن يكون بعنوان شيخ » . وفي خطاب آخر يقول : « ان المدرسين الذين يعينون لنشر العلوم في المدارس الواسعة التي تستحدث في نواحي وجهات تدخل تحت ادارة الحكومة في جنب جوامع تنشأ فيها يلزم أن يكونوا من أهل الكفاءة والاهلية . ومن الضروري انتخاب هؤلاء المدرسين من قبل العلماء فينبغي تسمية من يقوم بانتخابهم باسم ميز المدرسين أو رئيس المدرسين بدل تعبير الشياخة » .

وبالاضافة الى ذلك اهتم المصريون بارسال الطلبة السودانيين الى مصر ليلتحقوا بالازهر الشريف أو المعاهد المختلفة . وفي سنة ١٢٦٣ انشيء الرواق السناري لينزل به طلبة السودان الذين يدرسون بالازهر . وقد فكر المصريون في تدريب السودانيين ليحلوا محل المهندسين المصريين الذين يقومون بتركيب مصانع الحلج ومكابس القطن والاشراف عليها ، وفي ذلك يقول خطاب بدار الوثائق القومية : « بخصوص وفيات المهندسين الذين يحضرون من مصر لتركيب دواليب الحلاجة والمكابس يقترح فرز مائة شاب من الاهالي ان كانوا من تلاميذ مدرسة الخرطوم أو من أولاد العساكر وخلافهم ويرسلوا المحروسة لتعليمهم في مدارس العمليات الميكانيكية والزراعية » . وجاء في خطاب آخر ما يلي : «افادتكم المؤرخة في ١٩ شعبان سنة ١٢٨٧ تقترحون فيها انتخاب عشرين تلميذا

يختارون من تلاميذ المدارس هناك وايفادهم الى مصر ليتعلموا فن الطبابة « اي الطب » والصيدلة وذلك بناء على ندرة الاطباء في بلاد السودان . وقد رفض هذا الطلب لان الاطباء والصيادلة الذين يوكل اليهم الشئون الصحية يجب أن يكونوا حاذقين ومهرة في فنهم ولا يمكن تخريج أطباء اكفاء في مدة وجيزة » .

ولما غضب عباس باشا الاول والي مصر على رفاعة رافع الطهطاوي مدير مدرسة الالسن وأحد مشاهير رجال التربية في مصر ، نفاه هو وبعضا من المثقفين الذين شملهم غضبه الى السودان تحت ستار انشاء مدرسة في الخرطوم ، وكان من بين هؤلاء محمد ببومي مدرس الرياضة بالهندسخانة وابراهيم سليم مهندس مديرية القليوبية سابقا . وعندما بلغت هذه البعثة العظيمة الخرطوم لم تكن الظروف مواتية للمضي قدما بالمدرسة المزعومة . فقد كان رجال البعثة يعلمون انهم مبعدون عن بلادهم اكثر من كونهم رسل علم وحضارة .وقد أظهروا تبرما واضحا من هذه المهمة . ولم يكن استقبال الحكمدار اسماعيل حقي بخير ، فقد صرف النظر عن المدرسة ووزع معداتها على الجيش وأهمل شأن رفاعة وصحبه وقد قيل انهم بقوا في الخرطوم مدة طويلة دون عمل . وبلغ الهوان برفاعة مبلغه عندما ندب لاحصاء النخيل . أما الاهالي فقد استقبلوا الخبر بخوف وتوجس . قوم ظنوا ان الهدف من وراء المدرسة هو التجنيد ، وآخرون كانوا يخشون على ابنائهم من الكفر والالحاد لزعمهم ان المدرسة مفسدة اي مفسدة ورجس من عمل الكفار . وقد كان هذا الزعم عالقا باذهان العامة حتى وقت قريب واخشى أن يكون فينا شيء منه حتى اليوم . على أن الحال قد تغير قليلا عندما تذكرت القاهرة الرسالة المنسية وجاء سليم صائب خلفا لاسماعيل حقي الذي آثر جيشه بطرابيش المدرسة ومعداتها . وقد قدر لهذه المدرسة ان تفتح أبوابها في سنة ١٨٥٣ ، وكان قوامها ١٢ مدرسا وضابطا للصحة . أما الطلاب فقد كانوا من أبناء الموظفين وأثرياء المدينة ، أما أبناء العامة فكانوا يذهبون الى الخلاوي . وكان يدرّس في هذه المدرسة القرآن الكريم واللغتان العربية والتركية والرياضة . ولما توفي عباس

باشا وخلفه سعيد باشا في الحكم استدعى هذا الاخير رفاعة وزملاءه الى القاهرة ، وكان قد مات منهم يومي وآخرون وبذلك انتهت قصة هذه البعثة التعليمية التي تأخذ بريقها من شخص رفاعة وزملائه اكثر من المهمة ذاتها . وفي سنة ١٨٦٨ استجد الاهتمام بالتعليم وفتح المصريون مدرسة ابتدائية في الخرطوم بينما فتحوا بعد قليل مدرسة مماثلة في بربر واخرى في دنقلا . وقد كان برنامج هذه المدارس على نمط برامج التعليم في مصر . وكانت مدة الدراسة ثلاث سنوات . وقد وظف اغلب خريجوها في الترسانة والتلغراف . وفي سنة ١٨٦٩ ارسل ١٠٠ من خريجيها الى القاهرة ولكن يبدو أن رحلتهم لم تكن موفقة لضعف مستواهم بالمقارنة الى مستوى زملائهم في مدارس مصر . وبخلاف هذه المدرسة كانت هناك مدرسة حربية لتعليم الفنون العسكرية .

وقد أسس الآباء الكاثوليك مدرسة ارتادها ابناء الاوربيين وبعض أثرياء المدينة ، كما ارتادها الاطفال السود الذين تبنتهم الكنيسة . وقد كان برنامج هذه المدرسة يشتمل على الموضوعات الفنية والعملية والموضوعات الانسانية . ولم يكن الاقباط اقل اهتماما من غيرهم فقد بنوا مدرسة خاصة بهم وارسلوا اليها ابناءهم .

سكان المدينة :

كان سكان مدينة الخرطوم خليطا من أجناس كثيرة . ومن الممكن تقسيم هذه الاجناس الى أقسام ثلاثة ، الجالية الشرقية والجالية الغربية ثم الوطنيين . أما السودانيون فقد كان اغلبهم من مواطني الأقاليم القريبة من المدينة ، وقد وفدت اليها مع مرور الزمن جماعات كبيرة من الجعليين والشايقية والدناقلة وقد تركز أبناء كل قبيلة منهم في حي من الاحياء ، كما يحصل عادة في المدن السودانية . واذا ما نظرنا الى عدد السودانيين بالنسبة الى عدد الاجانب فإن عددهم يبدو صغيرا وقد قدر أحد الرحالة عددهم في أواخر العهد التركي بخمس السكان اي نحو عشرة آلاف . وكان نصيب السودانيين من ثروة المدينة وخيراتها نصيبا ضعيفا لتفوق الوافدين من الخارج عليهم حضاريا وماديا .

الجالية الشرقية :

تتكون هذه الجالية من خليط من أبناء الشرق ، وكان اغلبهم من المصريين ثم الشوام . وكان الاخيرون يعملون بالتجارة وكان اغلب المصريين من مديريتي اسنا واسوان ، وقد كان ابناء هاتين المديريتين على علاقات تجارية قوية مع السودانيين منذ أزمان بعيدة ولم تكن كثرتهم الغالبة في المدينة امرا عفويا وانما كانت امتدادا لهذه الظاهرة التاريخية. وكان المصريون يحتكرون أغلب مناصب الدولة الا ان الوظائف الكبيرة كانت شبه محتكرة للاتراك المتمصرين . كما كان العهد بهم في مصر . وكان من ضمن المصريين مجموعة كبيرة من الاقباط ، وقد قدر أحد السواح عددهم في سنة ١٨٤٢ بنحو المائتين بينما قدر قرانت عددهم في سنة ١٨٦٣ بخمسمائة ، وقد شيد الاقباط مدرسة لتعليم أبنائهم وكنيسة لاداء شعائرهم ، وقد بقيت هذه الكنيسة حتى خربها الأنصار بعد أن سقطت المدينة ، وقد سافر آخر ابائهم وهو ابونا حنا ، الى مصر عندما اشتد خطر الانصار على المدينة . وكان أغلب اقباط الخرطوم يعملون بالتجارة وكانت أعمال الحسابات في الدولة شبه محتكرة لهم وهذا مجال يجيده هذا العنصر النشط الدؤوب ، ويقال انهم كانوا يضعون العراقيل أمام غيرهم ليكون هذا العمل لهم وحدهم. وكان هناك العبابدة وهم قوم كانت لهم السيطرة على الطريق الصحراوي بين مصر والسودان منذ عهد الفونج نسبة لوضعهم الجغرافي المتاز . وعندما دخلت جيوش اسماعيل باشا السودان قدم العبابدة خدمات جليلة له . فقد رافقه خليفة ود حاج محمد وأخوه داود ، وهما من زعماء احدى بطون العبابدة ومعهما ٧٠٠ من عربان العبابدة وثلاثة آلاف جمل وقد كافأهم اسماعيل باشا على ذلك بان امضى لهم احتكار الطريق كما كانوا وجعل لهم عشر الصادرات مقابل تسهيلات الترحيل وتأمين الطريق . ونتيجة لذلك تزايد نفوذ العبابدة وازدادت هجرتهم الى السودان ، ولولا أن علاقات زعماء العبابدة مع الحكومة كانت تتوتر من وقت لآخر لكان لهم شأن أكبر . وقد كان مركز ثقل العبابدة في بربر أما في الخرطوم فقد كانت فيها مجموعة كبيرة منهم ، بعضهم يقيمون

في المدينة ويعملون بها وبعضهم الاخر يتردد اليها للتجارة او عمليات الترحيل . وقد كانت العلاقات الاجتماعية بين أفراد هذه الجالية وبين الوطنيين حسنة الى درجة بعيدة ، وقد أدت في النهاية الى ظهور طبقة جديدة في السودان نتيجة التزاوج بين العنصرين ، وهي طبقة المولدين التي تتركز في المدن الكبيرة وتقوم بدور بارز في بناء السودان الحديث .

الجالية الاوربية :

كان اوائل الاوربيين الذين وفدوا الى المدينة يشغلون الوظائف الفنية في الجيش المصري كاطباء ومهندسين ومستوظفين ثم وفد بعد قليل بعض التجار الكبار الذين كانوا يعملون في محيط التجارة المحتكرة للحكومة . وفي عهد خورشيد ازداد عدد الفنيين الاوربيين في الجيش المرابط في الخرطوم ، وكان اغلبهم من الفرنسيين والايطاليين . ولما الغى احتكار الحكومة للتجارة في عهد احمد ابوودان، فتح الباب على مصراعيه امام التجار والمغامرين فوفد عدد كبير من اليونانيين والايطاليين وغيرهم من الاوربيين ، وقد قدر عدد الاجانب في المدينة في اواخر العهد التركي بنحو ٢٤٥ أسرة ، منهم مائة اسرة يونانية و ٤٠ أسرة المانية و ٤٠ أسرة نمسوية و ٢٠ أسرة فرنسية وعشرين اسرة روسية و ١٥ اسرة ايطالية و ١٠ اسر من الأرمن . ولم تكن هناك أسر انجليزية . وكان بخلاف هؤلاء المترددون على المدينة للتجارة والسياحة والاكتشافات والتبشير . وكان اغلب الاوربيين يعملون بالتجارة . وكان اليونانيون منهم يحتكرون أعمال البقالة . وتبعا لتضخم المصالح الاوربية في السودان افتتحت القنصليات في الخرطوم . وكان اقدم هذه القنصليات القنصلية الفرنسية التي افتتحت في سنة ١٨٣٩ ويبدو ان ذلك كان امتدادا لاهتمام فرنسا بالشئون المصرية . وكان اهم القنصليات القنصلية النمسوية المجرية التي اتخذت اهمية خاصة لكونها راعية الارسالية الكاثوليكية . وقد افتتحت هذه القنصلية في سنة ١٨٥٣ .

وعينت بروسيا المسيو دوبوسبرج الذي سبق ان جاء السودان

تاجرا ، قنصلا لها . وكان لفرنسا قائم باعمال القنصلية ببربر وهو فريدينانت لافارج والذي كان تاجرا . وكان قسوبي كوزى قنصلا لبريطانيا في بربر ، وقد عينه غردون في هذا المنصب بالاضافة الى كونه ممثلا شخصيا له عندما مر ببربر في طريقه الى الخرطوم في آخر رحلة لـــه ..

وفي سنة ١٨٥٨ عينت بريطانيا المستر بتريك قنصلا لها في الخرطـوم ، وكان لا يتقاضى مرتبا . وقد اتهم بتريك باقتناص الرقيق تحت ستـار الكشف الجغرافي والتجارة ورفعت العرائض للحكومة البريطانية التي اكتفت باستعفائه . وكانت لساردينيا قنصلية ، ولتوسكانا قنصلية ثـم ادمجت القنصليتان تحت راية ايطاليا الموحدة . وكانت لليونان ايضـا قنصلية ، اما الروس فلم تكن لهم قنصلية . وكان جرجس بولص وهو قبطي كما يبدو من اسمه يمثل مصالح ايران بينما مثل احد الشرقيين مصالح الولايات المتحدة .

ان ازدياد نفوذ الجاليات الاوربية وقناصلهم في الخرطوم كـان امتدادا لنفوذهم الطاغي في مصر والامتيازات الاجنبية التي ارهقت كاهل شعوب الامبراطورية العثمانية وأهانت غرورهم . ولم تكن علاقة التجار الاوربيين بحكومة السودان علاقة حسنة بل اخذت دائما طابع المشاحنات والمناورات ، وقد بلغت العلاقات حدها من السوء في عهد عبداللطيف باشا فطلبت الدوائر الاجنبية سحبه من السودان وخاطبـه تجار الخرطوم بلغاتهم التي لم يكن له من يترجمها تكاية واستخفافا به . وقد سحب بالفعل في سنة ١٨٥١ .

وبدار الوثائق القومية خطاب من اصطفان رسمي وكيل الامـور الخارجية الى الكاتب الخصوصي للخديو يطلب فيه ان يعـرض عـلى الخديو عريضة من اربعة من القناصل بالخرطوم ، وهم المسيو هوبـر قنصل النمسا العام ، والمسيو جلبر وكيل قنصل انجلتـرا ، وقنصـل ساردينيا وقنصل فرنسا . وقد ارفق معه عريضة القناصل ، وكتابا من لطيف باشا الى الجناب العالي . والقناصل المذكورون يشكون مـن

تصرفات لطيف باشا حكمدار السودان ازاء التجار الاوربيين . ويذكر اسطفان ان لطيف ارسل قبلا كتابا الى الكتخدا بك يشكو له من أحوال الاوربيين الذين يتجولون في السودان باسم التجارة والسياحة ، وانه اقترح منع هؤلاء التجار والسواح من استجارهم الرجال وشرائهم العبيد وحملهم السلاح .

لقد سيطر التجار الاجانب على التجارة ، وتوسعت على ايديهم وايدي شركائهم من السودانيين الشماليين والجنوبيين تجارة الرقيق واستفحل أمرها في وقت كانت فيه تنحسر في البلاد الاخرى . وقد ذهب التجار الاجانب بالمغانم والثروات الطائلة التي جمعوها من ورائها . بينما ألصق عارها بالسودانيين الشماليين وحدهم .

(٣) الحياة في الخرطوم

لقد رأينا انسبا للفائدة ان ننقل بعض الفصول في وصف الخرطوم والحياة فيها في العهد التركي . وقد رجعنا في ذلك الى كتاب صديقنا المرحوم سليمان كتبة : « تأسيس مدينة الخرطوم والمهدية » . وغيره من المصادر .

١ — مقتطفات مما كتبه احد ادباء مصر في جريدة الاهرام سنة ١٨٩٦ . وقد نشر الطرف الاول من هذه المقالات في كتاب بغير اسم مؤلفه . وينتظر الباقي من يجمعه من الجريدة وينشره ..

يقول الاديب بعد أن يحدد موضع الخرطوم : « وتحيط بـه بساتين خصبة نضيرة يبلغ عددها نحو مائتي بستان ، مساحة اصغرها نحو ستة افدنة ما عدا البساتين الصغيرة التي لا تبلغ الأربعة أفدنة وهي اضعاف الاولى ويبلغ ثمن ثمار البستان الواحد نحو ٥٠٠ جنيه في السنة.

ويسكن هذه المدينة نحو ٢٥٠ الف منهم نحو الخمس من السودانيين ، والاخرون من الاتراك والمصريين والسوريين والاوربيين والمغاربة بين تونسيين وجزائريين ومراكشيين . وفيها من الاوربيين نحو ٢٠ عائلة فرنسوية اشهرها عائلة الدكتور بتيه ونحو ١٥ أسرة ايطالية و ٤٠ عائلة نمسوية ومثلها المانية ، واشهر العائلات الايطالية عائلة الخواجا دفيد النقاش . ومن العائلات النمسوية عائلة الخواجا هاك ماخير ايضا . وبها ١٠٠ عائلة يونانية ونحو ٢٠ عائلة روسية اشهرها عائلة الخواجا كاموسكي الساعاتي ونحو ١٠ عائلات من الأرمن اشهرها عائلة بطرس بك سركيس ولم يكن بين تلك العائلات عائلة انجليزية » .

وبعد ان يعدد اقسام المدينة يقول :

« مدينة الخرطوم جامعة الى جمال الموقع الطبيعي محاسن النظام المدني والرونق الحضري . واكثر ابنيتها من الحجر واللبن الاحمر مزدانة بالجبس والآجر . وقصورها في غاية البهجة والرونق وشوارعها منتظمة جدا . وفيها شارع يبتدىء من شاطىء البحر الازرق وينتهي في جنوب المدينة يسمى السكة الجديدة استعارة من اسم السكة الجديدة في القاهرة . وجميع سكانها محافظين على عاداتهم الاصلية ثم نشأ فيها التقليد الغربي وعادات المدنية الأوربية واصبحت اخلاق وعادات السكان من الطبقة الاولى والثانية حتى في المأكل والمشرب أوربية محضة . وذلك لسببين، اولهما وجود المدارس الاوربية التي تقدمت ونمت بسبب قبولها التلاميذ بلا أجرة وثانيها ميل سكان الخرطوم الى كل ما يقرب من المدنية الاوربية والى الاوربيين ولا سيما الفرنسيين . والدليل على ذلك ان في الخرطوم نحو الف شاب يتكلم باللغتين الفرنسية والايطالية .

ولسكان الخرطوم ميل شديد الى تزيين المنازل بادوات الرياش الفاخر وهم يقتدون بالاوربيين فيما يخترعونه من اصناف اثاث المنازل وانواع الملابس وعندهم من الملاهي وأماكن الرقص والقهاوي ما يزيد على الخمسمائة .

تجارة الخرطوم :

التجارة في هذه الحاضرة مهمة جدا حتى انها تعدل وحدها تجارة جميع الاقاليم السودانية . اما مقاديرها في الحبوب فهي أجل من ان تحصر . وللخرطوم اهمية عظيمة في تسفير القوافل والسفن التجارية والشراعية حاملة صنوف التجارة الى جميع مدن السودان . وأهم هذه الصنوف الانسجة المصرية وسن الفيل والصمغ والريش . ويبلغ ما يتجر به من السن نحو ٤٠ الف قنطار . اما الصمغ والريش فتضع

عندها فذلكة الرقم حتى ان ما يوزن منها كل يوم تبلغ أجرته نحو الف جنيه فاكثر عدا موزونات سن الفيل التي يزنها وازنو المصالح الاميرية .

المصالح الاميرية في الخرطوم :

اولاها ديوان الحكمدارية ثم ديوان المالية فديوان المديرية فالمحافظة فالضبطية اي حكمدارية البوليس فديوان العسكرية العمومي للجند السوداني فالترسانة وفيها من البواخر نحو ماية باخرة عدا المراكب الشراعية . وهي من احسن مصالح السودان نظاما واتمها معدات . وفيها من المعدات والآلات والمواد والادوات الصناعية ما تبلغ قيمته اربعة ملايين من الجنيهات . وفيها مطبعة اميرية ومكان لتجليد الكتب والدفاتر ثم مخازن الميرة الحربية والذخائر وغيرها . وفيها مدرسة اميرية تحوي نحو ٤٠٠ تلميذ ، واساتذتها من المصريين البارعين . وتدرس فيها اللغتان التركية والفرنسية عدا العلوم الهندسية والرياضية وغيرها على نمط المدارس المصرية . وفيها ايضا مدرسة حربية لتعليم الفنون العسكرية ومدارس الآباء الكاثوليكيين تقدمت تقدما عظيما وكثر طلابها ونجح غالب الذين خرجوا منها منذ ٤٠ عاما . وكان السودانيون لا يدخلون اولادهم في تلك المدارس مع تعددها من اميرية واهلية ومدارس الآباء الكاثوليكيين ولكن معظم سكان الخرطوم من مصريين وسوريين واوربيين يدخلون اولادهم فيها . اما المدارس الاميرية فكانت مخصصة للغلمان الذين فقدوا كل سند وعضد بموت آبائهم واقاربهم وبأولاد العساكر ايضا . وكانوا كلهم يعطون مرتبات وأكسية . ومن ظهرت نجابته منهم كان يرسل الى مصر على نفقة الحكومة لتكملة دروسه . وكان يرسل منهم نحو ٣٠ تلميذا سنويا يوزعون على المدارس الحربية ومدارس الزراعة ومدارس الصناعة حتى اذا اتموا دروسهم عادوا الى بلادهم بالشهادات الدالة على براعتهم .

اما المتخرجون في المدارس الاهلية والمدارس الكاثوليكية فكان اكثرهم من ابناء الاغنياء » .

٢ ــ وقال محمود ضمن في كتابه غرائب الزمان في فتح السودان :

« انتهينا الى ساحل الخرطوم في غروب الاحد يوم ٥ ربيع الاول ١٢٩٢ : ١١ ابريل ١٨٧٥ . وفي صباح يوم الاثنين حضر الينا معاون الضبطية وارشدنا الى محل نقلنا اليه متاعنا . ثم توجهنا الى الحكمدارية وسلمنا افادة المالية فامرنا انا ومن معي بالانتظار حتى يتم اعداد الجمال اللازمة لسفرنا عليها الى كردفان . ولا ينسى القارىء اللبيب ان طول المسافة قد ادهشني جدا وان الثلاثة اشهر التي استوليت على استحقاقها ستنقضي قبل أن أصل المركز الذي تعينت لأجله . وفي هذه الحالة شعرت بألم الفراق الحقيقي فاستخرطت في البكاء وسكبت الدمع مدرارا على فراق حبيبتي واهلي .

وبعد انصرافنا من الحكمدارية اخذنا نطوف بالخرطوم التي هي عاصمة بلاد السودان ومحط رحال تجارتها ، فاذا هي بلدة حسنة الموقع جميلة المنظر تحييها امواج البحرين الازرق والنيل غدوا ورواحا . ويوجد بها من الجهة الشمالية المشرفة على البحر الازرق كثير من البساتين النضرة الشائقة والقصور الباذخة الشاهقة حتى لقد يعتري القادم على هذا المنظر البهيج حيرة لا يكاد يصدق معها حقيقة ما ينظره او يرى انه قادم على اجمل بلد واعظمها تمدنا وحضارة . ولا غرو فان الخرطوم كانت المحل الاول لاشغال الحكومة المصرية في اواسط افريقيا ومركز تجارة السودان ومحط أعظم تجارة وعاصمة بلاد فسيحة الارجاء واسعة الاطراف كثيرة الخيرات جزيلة البركات ، ترابها تبر وحصادها در ويسكن الخرطوم خلق كثير لا يقلون عن مائة الف نسمة وبها ايضا كثير من الافرنج لكن الجنس اليوناني اكثر من غيره لان كل البقالين (البدالين) هناك يونانيو التبعة ، وما بقي منهم يشتغل بالتجارة . غير ان الجنس الانجليزي وان كان متشاغلا ومتظاهرا باشغال التجارة كسائر الاجناس الا ان ذلك لم يكن الا صفة اسمية فقط أو هو وسيلة لبلوغ غاية كامنة في النفس .

ويوجد في الخرطوم كثير من الشوارع المنظمة وعلى جانبها قصور مشيدة ومنازل جميلة تسر الناظرين . وهذه الشوارع تكنس وتـرش صباحا وعصرا وهي لا تقل في نظافتها عن شارع محمد علي . وبها ثلاثة مدارس احداها للحكومة ، وهي كاملـة المعدات حسنـة الترتيـب . والاخريتان صغيرتان احداهما للجزويت والاخرى للاقباط . أما المكاتب الصغيرة (الكتاتيب) التي يدرس بها القرآن الشريف فهي مما لا يدخل تحت حصر . وبها أيضا كثير من القهاوى ، منها ما هو على شاطىء النيل الأزرق ومنها ما هو داخل المدينة وجميعها منتظمة ومبيضـة تبييضـا جميلا . واراضيها مكسوة بألواح الخشب . وقد علقت على جدرانها الصور الجميلة الى غير ذلك من وسائل الزينة . وبها ما تشتهي الأنفس وتلذ الاعين من المأكولات والمشروب فضلا عن انواع الالعاب والملاهي كالبلياردو والشطرنج والنرد وغيرها مما لا يقل عن ما في مجتمعات مصر العمومية .

وبالجملة فالخرطوم مدينة توفرت فيها وسائل اسبـاب المدنيـة وكملت فيها وسائل العمران وسكانها على جانب عظيم من الرقة ودماثة الخلق والكرم والشجاعة .

اقمنا بها خمسة وعشرين يوما اخذنا فيهـا حظنا من الراحة وانسنا لوازم السفر ثم انتقلنا من الخرطوم الى ام درمان ، وهي واقعة عـلى الشاطىء الغربي للنيل الابيض فوجدناها عبارة عن مكتـب تلغـراف وبعض أماكن خالية من السكان . وقد خصصت هذه البقعـة لاقامـة الواردين من داخل السودان الغربي والمترددين عليه . وقد خيل لنا ان جميع عساكر مصر قد نقلت الى هذه البقعة لكثرة من بها من الجهادية وعساكر الباشبوزق . فاقمنا هناك ثلاثة ايام حتى جاءتنا الابل وقد ايقنا عند رؤيتها اننا هالكون لا محالة لبشاعة منظرها ولانها متناهية في الطول والارتفاع وشديدة السواد ولم يسبق لنا رؤية ما شاكلها . وفي يـوم الاثنين ٥ ربيع الثاني ١٢٩٢ الموافق ١٠ مايو سنة ١٨٧٥ علونا تلك الابل وازمعنا المسير » .

٣ ــ وقال محمود القباني :

ان الخرطوم كان لعهد دولة سوبا التي نجهل تفاصيل كيف بادت مسكونة من الناحية الشرقية « البراري » وفي جهة الجنوب الشرقي اذ رأينا أثرا ظاهرا لذلك هو الذي كنا نعرفه باسم جبل سوداء ، وما هو بجبل بل كثيب من رمل تكون ممتزجا بقدامات من أوساخ عمران آدمي شبيه بالتلال التي لا يحصيها عدد في مصر . وهنالك يسمونها الكفرية نسبة الى الاجيال التي كانت قبل الاسلام .

وموقع هذا الجبل المجازي الذي أزيل بعد فتح الحكومة الحالية شرق المقبرة المسيحية مع انحراف لجهة الجنوب . وفي ركنه الجنوبي الغربي مقبرة الاقباط . أما المقبرة الافرنجية فموقعها الحالي وانما زيدت ووسعت من جوانبها الاربعة . وفي مدخلها من جهة الشمال تمثال ملك بجناحين صنع من حديد أسود كالصلبان التي توضع على القبور ، وكان العامة يسمون هذا التمثال باسم كنيسة نكولة ، والخاصة يقولون مقبرة الافرنج . اسست هذه المقبرة مع كنيسة الكاثوليك ، وقد بنيتا بحجارة منضدة ، وسقوف الكنيسة ومساكن القساوسة مسقوفة بعقود حجرية غاية في الاتقان والمتانة والابداع بأيدي الصناع الايطاليين من نحات وبناء ونجار وحداد . وقد انفقت نفقات طائلة لجلب الحجارة من جهات جبل أوليا وغيرها . ومهما يكن سمعنا من كبارنا انها كانت حركة اقتصادية في الخرطوم وضواحيها ملأت جيوبا كثيرة بالنضار من الجنيه الفرنسي البنتو والريال القشلي النمسوي . وقد سمى هؤلاء القساوسة باسم المرسلون الافريقيون وتمهدت بحمايتهم امبراطورية النمسا والمجر واعترفت بهذه الحماية الامبراطورية التركية سيدة مصر والسودان وقتئذ .

واني لأذكر ان للآباء الكاثوليك مدرسة انتظمت في تلامذتها لما بدأت حوادث المهدية سنة ١٨٨١ ، وابطلت دروس اللغة الفرنسية في المدرسة الاميرية بالاشتغال بالاهم من المهم . سلخت في هذه المدرسة ٣٢ شهرا وشهدت الاحتفال بجنازة المطران دانيال كمبوني الذي أسس

كلية كمبوني هنا احياء لذكراه ، وكان احتفالا رائعا حضره حكمدار عموم السودان محمد رؤوف باشا واورطة الجند النظامي وقناصل الدول والاعيان والموظفون . وقد خلفه في هذا المنصب المطران سوغارو . ثم غادر القساوسة الخرطوم في أوائل شهر ديسمبر سنة ١٨٨٣ . وموضع هذه الكنيسة هو ديوان مديرية الخرطوم وأقول ايضا ان مكتب محكمة الجنايات ، ذات غرفة المطران كمبوني التي لفظ روحه فيها .

وقد كانت هذه الكنيسة من عمائر الخرطوم الجميلة تمتد حديقتها الى الشمال . يفصل بينها وبين النيل ، شارع عبدت أرضه يتنزه فيه المتنزهون في الأصيل وفي الليالي يمتد من شرق السراي الى غرب حديقة الحيوانات التي كانت ملكا للعم المرحوم ابراهيم بك خليل من أكابر سراة الخرطوم .

وتمتد الحديقة الكاثوليكية شرقا الى آخر عمارة الري المصري ، وتسقي بوابور بخاري من النيل باشراف خولي ايطالي يدعى دومنيكو أبى أن يترك ما غرسته يده حتى أدركته المنية في ايام المهدية . ففي هذه الحديقة العنب يثمر مرتين ، وكثير من النخل وفيها ما يكفي أهلها من فواكه وخضروات وبطاطس يباع الباقي في الاسواق . وان ذكرت عمارة الكاثوليك لمساهمتها في عمران المدينة وزهوتها أذكر انه كان قبل أن أخلق بسنوات ارسالية بروسية بروتستنتينية أقامت في الخرطوم وأسست معبدا ودارا ومدرسة من الآجر لا بأس بعمارتها ثم قفلت راجعة من حيث جاءت بعد أن باعت ممتلكاتها .

وفي الأزمنة الاخيرة كانت دورهم ملكا للمغفور له الزبير رحمة باشا ثم صارت هذه الدار مقرا للمدرسة الاميرية الى سنة ١٨٨٥ . واحذر أن موقع هذه الدار غرب محطة ترام الخرطوم الوسطى بقليل . أعود بعد هذا البيان الى العهد الذي أسس فيه الجامع والثكن العسكري والسراي ودواوين الحكومة لكي اتدرج منه الى الطور الثاني ، وهذا الطور الانشائي قام باتفاذه المرحوم علي خورشيد باشا رابع حكام السودان وأطولهم مدة اذ دام حكمه نحو ١٣ سنة واكثر من أسندت

اليهم هذه الوظيفة كانت أيامهم على الاكثر لا تتجاوز الثلاثة سنوات لما يرميهم به الاعداء من الطموح والاستقلال أو الميول الى ضم السودان الى تركيا التي كانت تمتلك شواطىء البحر الاحمر سواكن وميناء . وعلى كل فان اعمال علي خورشيد باشا لم تخرج عن كونها مقاصد حسنة للعمران وتوالت وفود التجار المصريين على الخرطوم واكثريتهم من اسوان واسنا فساهموا في تشييد عمران المدينة وتقدمها بما انشأوا من منازل وغرس البساتين واصلاح فنون الزراعة وتوسع صناعة السفن الشراعية على ايدي السفن ومالكيها بالذهب المصري الذي لم يكن قاصرا على الجنيه ونصف الجنيه بل هناك قطع من الذهب قيمتها خمسة قروش وعشرة وعشرين وخمسين وما زالت موجودة الى سنة ١٨٨٥ . وقد اتخذ منها حلى النساء ، فضلا عن الريالات التركية « المجيدي » والنمساوي القشلي . اما النقل على ظهور الابل فكله بأيدي شيوخ قبيلة العبابدة سواء كان حكوميا او تجاريا .

اما رخص الاقوات في الخرطوم فقد أدركناه ورأيناه . فان قيمة اردب الفترينة من عشرة قروش الى اثني عشر . وسمعنا كبارنا يتزمرون ويقولون انه كان بخمسة او ستة قروش . واردب القمح من ٢٥ الى ٣٠ ، وكان من ١٥ إلى ٢٠ قبل ان نخلق .

والحكومة تعتبر الريال التركي ١٦ قرشا وربع ، والاهالي يتعاملون به بعشرين قرشا صاغا ، والقرش الصاغ ثمانية قروش نحاسية تسمى « خردة أو طبر » . وتجري حسابات الحكومة بالقروش ورسمها هكذا (بارة قروش) . والقرش الصاغ اربعون بارة . وهناك ما يسمى كيس ، والكيس خمسماية قرش . وتجري مخاطبات الحكومة الادارية والعسكرية باللغة التركية كما تجري الحسابات والضرائب ومخاطبة شيوخ القبائل باللغة العربية . والى آخر أيام الخرطوم تجد عنوان المخاطبات تركي اللغة والخطاب عربي اللغة هكذا : سودان حكمداري وخرطوم مديري .

***

كانت الحكومة تبذل المعونة لساكني الخرطوم حتى انها لم تقف عند حد منحهم الاراضي بلا ثمن بل كانت تعاون بمنح أخشاب السقف للعمارات حتى كانت سنة ١٨٧٤ وفشت الأوبئة فمن حمى « ام سبعة » الى الهواء الاصفر « الكوليرا » . وقد هجر الخرطوم كثير من السكان وعد في ذلك الزمن انه مناخ موبوء لما كان يكتنفه من نواحي الجنوب والشرق من مستنقعات تتعفن فيها المياه .

وكان جل ما يرد الى السودان من المنسوجات هنديا علاوة على الطيوب من عطور وعطارة وأسرة الساج واسرة الحق .

وقد بذلت الحكومة مجهودات لا يستهان بها في ردم المستنقعات وفتح المجاري لتصريف المياه والسيول التي كانت تنحط على المدينة . وقد ادركنا هذا المجرى وموقعه في الساحة الواقعة جنوب سراي الحفاية ثم ينحني شمالا فيصب في النيل الأزرق . ومنذ نشأتنا وجدناها مدينة زاخرة بالعمران وبنايات بالاجر « الطوب الاحمر » والحجارة المنضدة وكانت تستخرج من حفر الشاطىء الغربي بام درمان . كما ان القمائن التي تشوى بها اللبن كانت في الضاحية الشرقية البراري والجريفات . واكثر المنازل كانت دورين وأقلها الدور الارضي .

والحكومة تشدد في تعميق الاسس وعرض الجدران . وأقل ما يسمح به في عرض الجدار ذراع معماري ونصف ذراع نحو متر وعشرين سنتيما . وقد ارتفعت اسعار الاراضي التي على شاطىء النيل أولا اذ كانت مرغوبة لغرس البساتين لسد حاجيات سكان المدينة من فاكهة وخضروات ونخيل واعناب تأتي اكلها في العام مرتين ، واحدة في الشتاء وأخرى في الصيف . فكان سكان الخرطوم يأكلون العنب شتاء وصيفا من النوع الاحمر اكثر والقليل من الابيض .

ولما كثر عدد الاجانب من سراة الاوربيين رغبوا في تشييد دورهم على شاطىء النهر فبذلوا اثمان عالية لأصحاب البساتين حتى بلغت قيمة المتر الواحد من جنيهين الى ثلاثة ...

ان مصالح الحكومة بالخرطوم متعددة وأماكنها متدانية مواقعها وأعظم تلك البنايات هي بناية الحكمدارية اعني السراي التي لم تكن ديوانا بل هي دارسكنى أسرة الحكمدار . وفي العهد الاخير تحولت ثلاثة اجزائها الى دواوين حكومية ، فعل ذلك غردون سنة ١٨٨٤ ، اذ اكتفى هو بالجناح الاعلى بمكتبه ومعاونيه وشغل الدور الارضي كله بمصلحة مالية السودان .

ديوان الحكمدارية : بنى بحجارة بيضاء جميلة منحوتة ذات منظر يضارع أعظم مباني القاهرة ومرتفع سطحه عن سطح الارض بأكثر من ثلاثة امتار وله نوافذ شمالية تطل على النهر والشاطىء مرصوف بالحجارة وقد غرست حول النوافذ أشجار باسقة . ومدخل ايوان جلوس الحكمدار من الجهة الجنوبية بثلاثة ابواب كبيرة جدا يجلس القواصة الاتراك على دكتين شرقية وغربية بسراويلهم المقصبة واردیتهم القصيرة سلطة وسيوفهم الكبيرة المعقوفة . هذه الابواب الثلاثة هي التي يدخل بها العموم لمقابلة الحكمدار . وفي شرق هذه الابواب رواق مستطيل فيه غرف من الجانبين وله باب شرقي يدخل منه الحكمدار من والى السراى . والغرف التي بجانب هذا المدخل احداها مكتبة لحفظ الكتب ومكاتب لموظفي القلمين الافرنكي والتركي وأوراق هاتين القلمين . ويقابل بناء الحكمدارية بناء مديرية الخرطوم وهو منزو الى جهة الغرب وأقل ارتفاعا من بناء الحكمدارية الذي يسامته من الجنوب دهليز مستطيل وبوابة جنوبية كبيرة مزخرفة يتوصل من فرندة ذات اعمدة شاهقة يجلس فيها ذو الاشغال من الاهلين وكثير ما هم . والغرف التي بجانبي الدهليز معدة لسكن البلك النظامي وضباطه المنوط بهم حراسة السراي ودور الحكومة اسبوعيا . ثم هناك مصلحة التلغراف وخزانة الحكومة ثم الدفترخانة في الجناح الشرقي والزاوية الجنوبية . يجمع هاته المصالح حوش واحد متسع تقام فيه الحفلات الرسمية ...

.... ومما يستحق الذكر مناظر المتنزهين حول المدينة من الشرق والغرب والجنوب والشمال وفي الزوارق وان كانت قليلة . فانها تمثل

منظر النزه في زوارق البسفور في استانبول كما يقول الاتراك ومن شاهدوها واحتذوا مثالا هنا . فأنت ترى مناظر المتنزهين في الارياض ركبانا على الخيول المختلفة في آلتها فتلك بسرج تركي واخرى بسرج سوداني أو افرنكي والكل في غاية الفخامة من رشمات فضية مطليه بالذهب . واختلاف الازياء في المتنزهين له منظره البديع ، فهذا يلبس زيا افرنجيا انيقا مع الطربوش وبجانبه آخر يلبس الزي القديم (السراويل والشيكن) . اما الطربوش المضلع فهو الزي الرسمي لجند الباشبوزق على اختلاف أجناسهم . وكنا نرى قساوسة الارسالية الكاثوليكية بثوابهم الكهنوتية وغطاء رؤوسهم الطربوش . وكانوا قبل زماننا يتعممون كقساوسة الاقباط . والميزة بينهما ان القبطي بقفطان وجبة او زعبوط وهم بثوبهم الطويل المزرر . وقد رأيت في كنيسة الكاثوليك تمثالا نصفيا من الرخام وضع احياء لذكرى انياسو كنونجير الالماني الذي أسس الكنيسة لابسا قفطان وفرجية وعمامة .

وبالجملة ان الازياء في الخرطوم كانت معرضا محتويا لأزياء اهل الارض كلهم تقريبا . ومن بين المعممين زي العمائم المتباينة من مصرية وصعيدية الى سودانية الى سورية الى هندية الى بخارية الى تركية . وكذلك اللحى الافرنجية . وكثير منهم كانوا يحلقون لحاهم من أسفل الحنك فيسميهم الناس ابو دقنين . ومن مشاهد النزهة التي تجري في الخرطوم في أغلب أيام الاسبوع لعبة الجريد التي يقوم بها جنود الباشبوزق والاتراك والمغاربة والشايقية والاهالي . وهي تمثل مبارزات الحروب والترامي بالسهام ولست بناس حلقات الحاوي المشعوذ والالعاب المدهشة من فنون السيما . وفي مرة وفد الخرطوم حاوي شهدناه قطع شابا اربا اربا الى عشرين قطعة والدم قد ملأ الارض وصرخ الحاضرون ثم تمثل لأعيننا ان الدماء والاجزاء المقطعة تتحرك وتقترب من بعضها حتى استوت شخصا سالما بجلابيته الزرقاء وطربوشه قبل ان يذبح ويقطع اربا . ومن مناظر الشعوذة التي نراها كل يوم رجل من ساكني الخرطوم قصير القامة ضخم الجثة كبير الوجه ضخم الرأس يبلغ شعره منكبيه

يحمل مسمارا غليظا مستطيلا ، على رأسه حلقات حديدية لا يقل وزنها مع المسمار عن عشرين رطلا ، يغرس هذا المسمار في عينيه حتى تراه لامعا شبرا في قفاه وقد سالت الدماء ثم يستله ولا اثر للدم ولا ضرر بالعين . وهكذا يعيده دواليك . وقد يضعه في صدره وقلبه وبطنه حتى صارت شعوذته هذه مألوفة لدينا .

٤ ـ وقال رفاعة رافع الطهطاوي في قصيدة نشرها في كتابه مناهج الالباب ، وكان كما قلنا كمن نفى الى الخرطوم :

وما السودان قط مقام مثلي	ولا سلساى فيه ولا سعادى
بها ريح السموم يشم منه	زفير لظى فلا يطفيه وادى
عواصفها صباحا او مساء	دواما في اضطراب واطراد
ونصف القوم اكثرهم وحوش	وبعض القوم أشبه بالجماد
فلا تعجب اذا طبخوا خليطا	ببخ العظم مع صافي الرماد
ولطخ الدهن في بدن وشعر	كدهن الابل من جرب القراد
ويضرب بالسياط الزوج حتى	يقال أخو بنات في الجلاد
وشرح الحال منه نصف صدر	ولا يحصيه طرسي أو مدادي
ولولا البعض من عرب لكانوا	سوادا في سواد في سواد
وحب فتكها بنصيف صحبي	كأن وظيفتي لبس الحداد
ثلاث سنين بالخرطوم مرت	بدون مدارس طبق المراد
وكيف مدارس الخرطوم ترجى	هناك ودونها خرط القتاد
نعم ترجى المصانع وهي اخرى	لتأييد المقاصد بالمبادي
علوم الشرع قائمة لديهم	لمرغوب المعاش او المعاد

٥ ـ الخرطوم كما راها الرحالة الاوربيون :

كانت مدينة الخرطوم نقطة البداية بالنسبة للرحالة الاوربيين الذين كانوا يأتون الى السودان للكشف الجغرافي وخاصة في اعالي النيل . وقد سجل اغلبهم مشاهداتهم في كتب . وقد فعل ذلك أيضا

عدد من الاوربيين ممن كانوا في خدمة الحكومة المصرية . وقد اختار هذه الصورة السريعة لاعطاء فكرة عن مشاهداتهم .

لقد وصل فردناند وبرن Ferdinand Wern الى الخرطوم في ١٨٣٩ ، وعاش في الخرطوم قرابة سنة . وكان أخوه جوزيف جراحا في الجيش المصري وعمل في سنار والخرطوم ، وقد أقام معه فرديناند اثناء مقامه بالخرطوم . ويذكر الرحالة انه عانى طوال اقامته في الخرطوم من الحمى وسوء الطقس والذي بلغ من الرداءة حده . ثم يذكر ان الخدمات الصحية كانت سيئة للغاية وان العاملين بها كانوا يجهلون أصول الطب وتركيب الادوية فضلا عن انهم كانوا يسرقون الاغذية وأقمشة الطب والادوية وانهم كانوا يحضرون أدوية مغشوشة . ويبدو ان حالة الامن كانت سيئة . فقد أفاض الرحالة في وصف حالة القلق الذي كان ينتاب الموظفين الاقباط عندما يتركون عوائلهم في المنازل ويذهبون الى أعمالهم وكيف انهم كانوا يغلقون الابواب على عوائلهم ويأخذون المفاتيح معهم. وقد عانى وبرن الامرين من جراء الاهوية الشديدة التي تسبق الخريف والامطار الغزيرة . ويذكر انه شاهد في ٣١ اغسطس ١٨٣٩ اعنف العواصف التي شاهدها . وقد هطلت الامطار وفاضت المياه حتى ابتلعت المنازل ودكت بعضها .

وجاء في ١٨٥٠ جورج ملي George Melly وقد وصف المدينة وصفا أخاذا وهو قادم اليها من جهة الشرق ، ثم وصف القصر والمنزل الذي نزل به ، وكان في جوار القصر ، وحديقة الحيوان . وقد وصف حدائق الخرطوم والسوق . وسجل مشاهدات دقيقة عن شعور الناس نحو والدته واخته وكيف تجمعوا للنظر اليها .

وكان جون باتريك قنصلا لبريطانيا في الخرطوم . وكان قبل ذلك تاجرا ، وقد اتهم بالاتجار في الرقيق . وقد وصف الخرطوم كما شاهدها وعرفها في سنة ١٨٤٦ والسنة التي تليها وقدر عدد سكانها بنحو ٦٠ الف شخصا . وبعد أن عدد المباني الحكومية والتي كانت مشيدة بالطوب

الاحمر ذكر ان المبنى الوحيد الذي شيد بالحجر هو الارسالية الكاثوليكية . اما بيوت الاهالي فكانت بالطين ثم عاد باتريك الى الخرطوم في سنة ١٨٦٠ ، ومعه زوجته ليقوم بمهمة القنصل . وقد وصف الحياة الاجتماعية في المدن وبالذات حياة الاوربيين .

وجاء صمويل بيكر في ١٨٦٢ . وقد وصف المدينة بانها بدائية وانها مركز تجمع قوافل التجار (تجار الرقيق والعاج) . وعاصمة الادارة التركية التي كانت تسيطر على موارد البلاد بطريقة شرهة ولا تعطي الاهلين مقابل ذلك حكما صالحا .

وقال : كانت عملية نهب بشعة لم يعرف التاريخ لها مثيلا ، اشترك فيها كل موظف في الدولة من الحاكم العام ــ موسى حمدي باشا في ذلك الوقت ــ الى اصغر خفير . اما الجنود الاتراك والمصريين الذين كانت تتكون منهم حامية الخرطوم فقد بلغ عددهم حوالي خمسة عشر الفا من الجند كانوا يعيشون في البلاد كجيش محتل . وقد انعدمت في قلوبهم الرحمه . كان كل ما يهمهم هو جمع الضرائب والتي كانت تجبى بالهاب ظهور الناس بالسياط او بالغارات المسلحة على مخازن الذرة وزرائب الماشية في البلاد النائية .

وكانت شوارع الخرطوم مهملة وقد تراكمت عليها القمامة ورمم الحيوانات وتزاحم فيها نحو ثلاثين الف نفس هم سكان الخرطوم في ذلك الوقت . وكان الواحد منهم لا يستطيع ان يقضي غرضا دون ان يستعين بالرشوة . وكان الجلد والتعذيب شيئا عاديا . وكان موسى باشا حمدي يجمع أرذل خصائل بني جلدته واضاف عليها الوحشية المتناهية . والجو شديد الحرارة وعندما تهب العواصف الرملية يتحول ضوء النهار الى ظلام ليل شديد السواد ... ان كل قافلة تقدم من الجنوب الى الخرطوم تأتي بشيء جديد من الاكتشافات والطيور والحيوانات والسلع والنباتات الغريبة التي لم تعرف الى ذلك الوقت .

وقال برون روليه Brun Rollett ذلك الفرنسي الذي قضى في السودان ردحا طويلا ، ان الخرطوم كانت مدينة واسعة في الازمان الغابرة حتى دخلها الشلك في ليلة من الليالي حوالي ١٧٨٠ • وقتلوا سكانها وخربوها خرابا تاما ثم يذكر ان جيش محمد علي لم يجد عند وصوله الى المكان الا ثلاث قطاط ومقبرة كبيرة • وقد قدر روليه سكان الخرطوم في وقته (اي حوالي سنة ١٨٤٠) باربعين الى خمسين الفا •

وقال اللورد بروذوى Prudhoe والذي وصل الى الخرطوم في ١٠ مارس ١٨٢٩ في طريقه الى سنار ان المدينة تتكون من نحو ثلاثين منزلا من الطين وقطاطي من القش • وقد اقام هو وصحبه في خيمة • وكان الحاكم العام نفسه يسكن في منزل مشيد بالطين • ولم تكن بالمدينة اشجار •

وذكر المسيو كومبى Combes الذي زار الخرطوم في سنة ١٨٣٤ ان سكانها يبلغون نحو ١٥ ألفا ، وذكر ان الناس كانوا يتعاملون بريالات ماريا ثريزا النمسوية والمحمودية التركية والبيوظة المصرية والسافريتا النمسوية والمصفاني •

ويقول شوينفيرت عن الخرطوم في سنة ١٨٦١ ان الحالة الصحية فيها كانت في غاية السوء من جراء اجزائها المنخفضة عن منسوب النيل والتي كانت تصير بركا ومستنقعات تفوح منها الرائحة الكريهة ويتوالد فيها الذباب والناموس • وقد تفشت الملاريا بشكل مزعج •

ولما جاء دى كوسون DeCosson في سنة ١٨٧٣ فانه لم يكن برما بالمدينة كاصحابه السابقين وانما ذكر ان المدينة حسنة لولا امراضها • وقد طاف كوسون المدينة على حصان • ودون مشاهدات طريفة عن أطراف المدينة وبساتينها وخاصة منطقة المقرن • كذلك وصف شاليه لونج المدينة وصفا طيبا •

والظاهر ان جملة الرحالة الاوربيين كانوا ناقمين على الادارة المصرية مع انهم بفضلها قد جمعوا الثروات الطائلة وتسنى لهم القيام برحلات الى أعالي النيل والقيام باكتشافاتهم . وقد كانوا يحصلون على البواخر والسفن الحكومية بايجار بسيط . وكانوا ناقمين ايضا على السودانيين وعلى جو الخرطوم وأمطارها وقد كتبوا كثيرا عن تجارة الرقيق وعابوا أمرها على الشساليين مع ان القدح المعلى في هذه التجارة كانت للاوربيين الذين يؤجرون الشساليين . وكان باتريك القنصل البريطاني نفسه متهما بالاتجار في الرقيق . والرحالة الاوربيون نادرا ما يلتفتون الى حياة السودانيين أو الى الطرف الاهلي وانما غالب كلامهم عن متاعبهم وما كانوا يعانونه وعن مجتمع الاوربيين واهتماماتهم الكشفية .

(٤) ـ المهدية والخرطوم

المهديـة :

في أواخر يوليو سنة ١٨٨١ أماط المهدي اللثام عن حركة كان يعمل لها منذ فترة . وأعلن عن عزمه على القضـاء على النظـام التركي في السودان واقامة مجتمع اسلامي ثم القيام بسلسلة من الفتوحـات حتى يدين له العالم اجمع وينعم بهذا النظام الذي أتى به .. ان حركة المهدية هذه كانت حركة دينية ذات أعماق بعيدة وكانت تعادي بشكـل مباشر المجتمع الذي تمثله مدينة الخرطوم ، عاصمة الترك ، وقصبة النظـام السياسي الذي اعلن المهدى انه لا يزول الا بحد السيف ومركز القـوة والثقل في المعارك التي سيخوضها هو وأنصاره .

ولما بدأت الدعوة في الجزيرة ابا لم تصل انباؤها الى المسئولين في الخرطوم بشكل رسمي وانما نقل انباءها نفر من الناس فعدها الحكمدار رؤوف باشا وشاية مغرضة من ذوي المنفعة عنده او الغـرض السيء في فقيه ابا ، أو لعله قد استهون شأن هذا الفقيه وعده متطاولا على قـوة وسلطة عصرت قبله الآلاف ووقفت دون الوصول اليها جحافل الوهابيين وجيوش سنار وفرسان الشايقيه والعبدلاب وعزم الملك نمر وفرسانه ، أو لعله حسب الامر في عداد المناوشات التي تقع بين الطوائف الدينيـة المتنافسة ، وعلى أية حال فقد سكت رؤوف ولم يتحرك الا بعد شهـر كامل من اعلان المهدية علنا بعد أن ظل الامام المهدى يعمل لها سرا نحو أربعة شهور . ولما كثر اللغط وتناقل الناس اخبار الفقيه وثورتـه في